دكتورة منى حلمى

الحب فى عصر العولمة



دار المعارف

إن الذيـن عنـوا بإنشـاء هـذه السلسـلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فـى شـىء واحـد ، هو نشر الثقـافة مـن حيث هـى ثقافـة ، لا يريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشـعوب العربيـة . وأن ينتفعـوا ، وأن تدعوهـم هذه القـراءة إلى الاستزادة مـن الثقافـة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقـى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٤٩]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : **منى جامع**

تقديم

ماذا تعنى الكلمة ؟

سؤال يلازمنى ، منذ أن اختارتنى الحياة لأنتمى إلى ذلك الفعل الممتع، الموجع فى آن واحد .. «الكتابة» .

أتكون الكلمات مجرد تعبير عن المشاعر ، والأفكار ؟ أهى تجسيد مكثف لجوهر الذات ، وما تحمله من طاقات ، وأسرار ، فى علاقتها بالحياة ؟

نعم ، «الكلمة» تعبير، وكشف للذات، وتفاعل مع الآخر، والطبيعة، والأشياء .

لكننى فى كل مرة أمسك بالقلم ، أحس أن هناك شيئا أبعد من ذلك. كنت أشعر أن التعبير ، والكشف ، والتفاعل لابد لهم من قيمة عليا متجاوزة .

إنها السباحة ضد التيار ، التى تضفى على فعل الكتابة أهميته، وسحره، وتفرده .

إن الكتابة التى لا تحرض على رفض القوالب المنمطة ، والخروج على الأشكال المتوارثة فى الفكر، والسلوك، تصبح مجرد سلعة رديئة فى سوق الاستهلاك العابر .

والكلمات التى لا تستشرف عالما جديدًا، أكثر صدقا، وعدلا، وحرية، لا تستحق عناء القراءة .

هذا الكتاب بموضوعاته المتنوعة عن الحب ، والمرأة والرجولة ، والفن والدين والفكر ، موجة سابحة ضد التيار ، وتصور جرىء لعالم أكثر إنسانية .

إنه صرخة احتجاج ضد الكثير من المسلمات التى يؤمن بها العقل العربى ، وتعوق انطلاقه وتقدمه رجالا، ونساءً على حد سواء .

فى بعض الأحيان ، تكون الصرخة حادة جدًا ، فى أحيان أخرى تهدأ قليلا . لكنها دائما مصرة على أن تُسمع صوتها . ودائما على ثقة، بأن أصوات الاحتجاج ضرورة لتوازن، وانسجام موسيقى الحياة .

د . منى حلمى

رؤى فكرية عامة

الخوف من الاختلاف

وهل الحياة تستحق أن تعاش ؟

ليس الجواب سهلا كما قد يبدو للبعض .

يتوقف الأمر على من الذى يعيشها .

لا نتصور أن يكون هدف الحياة أن نأكل ونشرب وننتج السلع ونتنزه ونتعامل مع الأجهزة ونتزوج ونتناسل .

هناك هدف أعظم وأسمى تطمح الحياة أن يبحث كل منا عن ذاته المتفردة وأن يكافح من أجل إطلاق مواهبها وقدراتها الخلاقة .

نعم لكل إنسان ذاته المتفردة التى لا تشبهها ذات أخرى . تماما مثل بصمة الإصبع غير قابلة للتكرار ، كل إنسان يولد متفردا ولكن ليس كل إنسان يموت متفردا ، ترى ما الذى يحدث لنا بين الولادة والموت ؟

ترى ما الذى يمسح أو يقتل فينا فطرة التفرد ؟

إنه «الخوف من الاختلاف» .

نخاف أن نفكر ونحس ونغضب ونحلم ونتكلم ونتحرك خارج الخطوط والمدارات المألوفة المرضى عنها .

منذ الصغر فى الأسرة يزرع الأهل (سلطة الأب أو سلطة الأم أو الاثنين معا) بدايات هذا الخوف .. وتتعاون كل ثقافة المجتمع الأكبر ، فى تدعيم ما أرسته سلطة الأسرة فى خلق إناس متشابهى التفكير والإحساس والأحلام .

إن حماية الذات المتفردة الكامنة فينا والمتحفزة للتحقق، مرهون بإعلاء قيمة «التمرد» فى حياتنا.. التمرد على محاولات التنميط والقولبة.

وليس مصادفة أن حرفا واحدا يفصل ما بين كلمة (تمرد) وكلمة (تفرد).

يكمن جوهر التمرد فى انحياز الإنسان لإرضاء الذات لا إرضاء (الآخر). هذا ليس معناه التفنن فى خلق صراعات دائمة مع الآخر وليس معناه حب الصدام فى حد ذاته .. ولكن القضية أن يكون الإنسان يقظا. ففى الموقف الذى يتعارض فيه (الآخر) مع إطلاق صوت ذاته الداخلى تكون الأولوية بدون تردد للذات.

«التفرد» أمانة أودعتها الحياة فى نفوس البشر، وبالتالى فإن التنازل عن حقنا فى «التمرد» والحرص الدائم على إرضاء الآخر لا إرضاء الذات هو خيانة للحياة.

ولكن الحفاظ على أمانة «التفرد» ليس طريقا مفروشا بالزهور إنه طريق ملغم بالأخطار، فلا شىء يثير حفيظة الناس وغضبهم إلا (ذات) مصرة على اختلافها، واثقة من تفردها ومن الإصرار والثقة تتولد الشجاعة الضرورية للسباحة ضد التيار.

إن الإضطرابات النفسية، والميول العدوانية تجاه الآخر أو اتجاه النفس وأفكار وسلوكيات التعصب، كلها تجد جذورها فى عجز الإنسان عن تحقيق ذاته المتفردة والاستعاضة عنها بنسخة مشوهة من ملايين البشر.

والشىء الغريب أن البشر يوجهون الكثير من الوقت والجهد والاهتمام لتنمية أشياء خارجة عنهم، مثل النجاح والفلوس والشهرة وكسب

الأصدقاء والعلاقات الاجتماعية ، كل ذلك فى إطار من استحسان الآخرين ، ورضاهم ومدحهم ، ولكنهم يبخلون بالوقت والجهد والاهتمام للاستماع إلى صوتهم الداخلى وإنماء الذات المتفردة داخل كل منهم .

إن الانشغال بالعالم الخارجي وإهمال العالم الداخلى يضع أسس اغتراب الإنسان عن ذاته الحقيقية .. وطالما اغترب الإنسان عن ذاته فإنه يظل غير سعيد مهما وصل إلى نجاح مادى أو مركز مرموق أو شهرة أو فلوس ومهما أحاط نفسه بالعديد من الصداقات والعلاقات .

لقد اعتبر الفيلسوف (سورين كير كجورد) أبو الفلسفة الوجودية وأكثر الفلاسفة تأكيدا على أهمية الذات ، أن الحقيقة هى الذاتية حيث إن العالم الخارجى (الموضوعى) لا يقدم لنا إلا الشك .. تأتى الحقيقة من ذاتية العلاقة وليس موضوعيتها التى يشترك فيها كل الناس .. معنى ذلك أن (الموضوعية) التى يطالب بها الآخرون ويعطون لها أفضلية عن (الذاتية) ليست إلا غياب تفرد الإنسان .

ولأن الحياة قد أودعت فى قلب كل إنسان بصمة متفردة ، فإن كل ذات تحمل داخلها سرا من أسرار الكون ، وربما تحمل الكون كله فى شكل بشرى مصغر .

وبالتالى فإن كفاح الإنسان لإعلاء ذاته المتفردة هو بالضرورة إعلاء لكلمة الحياة وانتصار لقوانين الكون الأزلية المرادفة للعدل والخير والحب والجمال .

إن الحياة تتقدم وتزدهر بفضل هؤلاء النساء والرجال الذين أرهفوا السمع إلى صوتهم الداخلى رغما عن صخب التشابه ، ولم يتنازلوا عن تفردهم الذاتى مقابل أية إغراءات خارجية .

الحصار ضد الأقليات المبدعة

عرفنا من فلاسفة الأخلاق القدماء أن الفضيلة وسط بين رذيلتين .

فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور . والكرم وسط بين البخل والتبذير . والحرية وسط بين القهر والانحلال . والنظام وسط بين الفوضى والجمود .

ولأن الإبداع فضيلة ، فهو يخضع للنظرية نفسها . فالإبداع وسط بين رذيلتين (الجنون) ، و(العادية) . ويكون المبدع بالتالى هو الوتر المشدود بين الإنسان فاقد العقل (المجنون) ، والإنسان فاقد التفرد (العادى) .

وإذا نظرنا إلى (الجنون) باعتباره حالة الانفصال الكامل المستمر عن الواقع والناس والعالم الخارجى ، وإلى (العادية) باعتبارها حالة الاتصال الكامل ، يكون الإبداع هو تلك الحركة الخلاقة (الفاصلة) بين قطبى أو رذيلتى الانفصال والاتصال . ويكون المبدع هو ذلك المسافر أبدا على المسافة المتأرجحة والوعرة بين الخارج والداخل بين الآخر والذات ، بين الكلام والصمت ، بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون .

هنا تكمن عبقرية المبدع أو (المبدعة) وأيضا مأساته. يدرك المبدع أن استمرار عبقريته وإبداعه مرهون بالإبقاء على الخيط الرفيع بين الاتصال والانفصال. فالإبداع يشحن ويجدد بالاتصال. لكنه لا يمنح طاقاته وأسراره ورؤاه إلا بالانفصال .

ويحكى لنا التاريخ، عن مواهب وطاقات مبدعة ، تبددت بسبب ارتباك فى جرعتى الاتصال والانفصال ، فإذا زادت جرعة الاتصال بالعالم الخارجى، كان ضياع الوقت، والتعطل، وحصار التفاهات، ومشاغل الدنيا غير الموحية. أو زادت جرعة الانفصال عن العالم الخارجى، فكانت العزلة، والإفلاس، والجدب، وربما الكآبة إلى حد الجنون أو الانتحار .

يتعطش المبدع إلى نوع خاص رفيع من التواصل . ليس أى بشر، ليس أى حوار، ليس أى عمل فنى، وليست أية صحبة قادرة على مخاطبة أصالة الحياة داخله ، وتفجير ما يملكه من عمق وثراء .

وهذه مشكلة اجتماعية تاريخية ، لا دخل للمبدع فيها ، فالتواصل اللازم للمبدع لا توفره إلا المجتمعات المتألقة فكرا وفنا وحيوية . مجتمعات تقدس قيمة الفن ، تحتفى بأهل الإبداع ، وتحرص على إشباع رغباتهم فى الاكتشاف والتجديد وكسر المحظورات وتغيير شكل الحياة .

قد يفضل المبدع العزلة والانفصال ، عن تواصل زائف سطحى - يسحب من طاقاته وينال من إنسانيته وإبداعه .

ويبقى السؤال الذى يواجهه المبدع فى كل زمان ومكان : كيف يتحرك برشاقة بين (الخارج) و(الداخل) بين (الآخر) و(الذات) ، بين كثافة وعنفوان التجربة ، والتأمل الهادئ لإعادة إنتاجها فى الإبداع . كيف يختار زاويته الصغيرة الخاصة من العالم ، ليطل منها على العالم ؟

إنها (القلعة الداخلية) التى تمنح المبدع الاكتفاء والاستغناء ، وثورية الرؤية . كل مبدع بالضرورة هو بطولة صامتة فى عالم لا يخجل من صخب الثرثرة العقيمة . كل مبدع بالضرورة هو زهد نبيل، فى حضارة اعتنقت الشراهة .

يقول أرنولد توينبى ، متابعا حركة التاريخ : إن (الأقلية المبدعة) هى التى تغير شكل الحضارات ، وتدفع بالمجتمعات إلى آفاق غير مسبوقة من التقدم .

لا نبالغ إذا قلنا أن (الأقلية المبدعة) فى مجتمعاتنا ، ما زالت محاصرة بالممنوعات والمحظورات والريبة وسوء الفهم ودورها ورسالتها .

ونحن على مشارف قرن جديد من الزمان ، نتساءل : إلى أى مدى تستعد مجتمعاتنا لفتح الطريق أمام (الأقلية المبدعة) ؟

هل لدينا فلسفة مستقبلية .. ما الذى نريده من هذه (الأقلية المبدعة)؟ أنريد لها الجنون ، أو العزلة أو الانتحار ، أو الكآبة ؟ أم نريد لها ما قصدته البشرية ، من وجودها .. إثراء الحياة بالحق والخير والجمال ؟

مجرد سؤال !

القهر ضار جدا بالصحة

وقفت المذيعة التى تتخفى وراء حجاب من المساحيق، والرموش الصناعية، والعدسات اللاصقة الملونة، وصبغة الشعر الصفراء، تعظ الشباب فى برنامج تليفزيونى عن مضار التدخين قائلة: «أيها الشباب.. لا تدمروا أنفسكم بالتدخين، مجتمعكم يحتاج إليكم».

هذه الموعظة التى وجهتها المذيعة إلى شبابنا بالإقلاع عن التدخين يتضامن حولها العديد من الهيئات والجهات، والجمعيات المحلية، والدولية.

وهناك اليوم العالمى للإقلاع عن التدخين، وهناك التحذيرات من التدخين فى الحجرات المغلقة، وأماكن العمل، والتجمعات المزدحمة، والآن هناك حملة لعدم بيع السجائر لمن هم أقل من ١٨ سنة.

كل هذا جميل، ولا يمكن بأى حال من الأحوال، أن ينكر إنسان ما تلك الجهود، أو يعارض الإعلام عن مضار التدخين، أو كيف أنه انقرض أو يكاد ينقرض من الدول المتقدمة، ومازال منتشرا فى الدول النامية، حيث تشكل الدول النامية السوق الأساسية لبيع السجائر.

ولكن القضية ليست بهذه السهولة، إن إقبال الشباب والشابات على التدخين، رغم علمهم بمضارة وما يسببه من أمراض، يدلنا على وجود

خلل ما.. نحن مع ظواهر حياتنا المختلفة، لا يجب أن نكتفى بالإشارة إلى النتائج والقشور الخارجية، وتقديم المواعظ الاخلاقية، والتحذيرات والتعليمات، لابد من مواجهة الاشياء من جذورها.

الشباب يدخن، لأن هناك من «الدوافع» النفسية، والاجتماعية، ما يجعله يقبل على سيجارة تدمر الصحة، وتقصف العمر.. وسوف تظل عادة التدخين منتشرة بين الشباب، طالما أن هذه الدوافع النفسية، والاجتماعية باقية دون تغيير.

إن الشاب الذى يشعل سيجارة رغم علمه بمضارها، إنما يشعل فى الوقت ذاته، رغبته فى إحراق إحباطاته، وقهره، والفتاة التى تشعل سيجارة، رغم علمها بمضارها، تشعل الحنين المكبوت للتحقق الإنسانى، والعاطفى، والعملى. لا أحد يتكلم عن إحباطات وقهر الشباب والشابات فى بلادنا. شباب تائه، ضائع، متجهم، متوتر، شباب لا حاضر له، ولا مستقبل يعده بالعمل أوالتحقق، أو المشاركة فى صنع أى قرار سياسى، أو اجتماعى، أو ثقافى أودينى.

إنه المنطق نفسه مع قضايا أخرى عديدة فى مجتمعاتنا، أبرزها برامج وإرشادات وحملات تنظيم الأسرة فى الريف، والمدينة.. إنها حملة قومية لن تنجح إلا مع الناس الذين انتفت لديهم دوافع الاحتياج إلى أسرة كبيرة ممتدة بالفعل، إن الفقر وافتقار الضمانات الاجتماعية، والتأمينات الصحية، خاصة فى الريف، يجعل من الأطفال موردا اقتصاديا فى الحاضر، وسندا اجتماعيا فى المستقبل. ليست مصادفة أن تنظيم الأسرة،

يوجد إما فى البلاد المتقدمة، أو بين قطاعات الأفراد الذين أرتفع مستوى دخولهم، ومعيشتهم، وأصبح لديهم بالتالى طموحات وأحلام، للاستمتاع بالحياة، لا تتوافق مع المسئوليات والقيود التى تفرضها الأسرة كبيرة الحجم.

لو كنا حقا نريد للشباب الإقلاع عن التدخين فعلينا أن نوقف سيل المواعظ والتحذيرات، ونوجه الاهتمام إلى «تمكين» الشباب من تحقيق أحلامهم فى الحاضر، والمستقبل وإعطائهم الفرص الحقيقية لإثبات ذواتهم فى العمل والتفكير، والنقد والأبداع.

وهذا «التمكين» غير ممكن، إلا مع مناخ الحرية، والقضاء على كل أشكال القهر الذى يخيم على شبابنا وشاباتنا.

فالقهر ضار جدا بالصحة، أكثر من ضرر التدخين، إن الشاب المتحقق يخاف على صحته وعلى عمره، وعلى شبابه.. والشابة المتحققة تخاف على صحتها وعلى عمرها، وعلى شبابها.

لكن الشابة المقهورة، أو الشاب المقهور على كل المستويات، ليس لديه «دافع» قوى للحفاظ على نفسه، وعلى حياته، ويصبح من السهل أن يقع فريسة «التدمير الذاتى» الذى يقوم به، تجاه نفسه وجسده.

حين يحس الإنسان بالقهر والإحباط خاصة فى سن الشباب، تنحرف طاقته نحو مسارات انحرافية متعددة.. وفى حالة مثل التدخين، تتحول الطاقة التدميرية نحو «الذات» فالجسد هو أقرب شىء للإنسان وهو الشىء الوحيد الذى يملكه أو يتوهم أنه يملكه فى عالم يجرده من

كل شيء.. وهذا الوهم بملكية الجسد له مصداقية أكبر في حالة الفتاة، أو المرأة. فحقيقة أن جسد المرأة هو وسيلة لإنتاج البشر، فعلى المجتمع – خاصة لو كان مجتمعا ذكوريا متسلطا – أن يخلق من المحظورات والقوانين والمحرمات التى تتحكم فى هذا الجسد الذى يخلق البشر، والقوة العاملة، ويحمل مهمة استمرار البشرية، وحفظ المجتمعات من الانقراض، أو الانكماش.

إن العادات «السيئة» المضرة بصحة الإنسان، وجسمه، مثل عادة التدخين، أو العادات الغذائية الخاطئة، والتى تنتج عنها السمنة المفرطة، كلها نتائج طبيعية لشعور الإنسان بدرجات وأشكال مختلفة من القهر، وعدم التحقق الإنسانى، والعملى والعاطفى.

إن «الريجيم» القاسى، المستمر، الذى تفرضه النساء والرجال على أنفسهم يخفق على المدى الطويل فى تحقيق «الرشاقة» المطلوبة، فـ «الرشاقة» هى أساسا «نمط للحياة» يؤدى إلى السعادة والتحقق المتكامل لكل متطلبات، واحتياجات الشخصية، وليس مجرد «نمط غذاء».

إن الإنسان السعيد المتحقق لا يفرط فى الأكل ولا يدخن ولا يقبل على أى شيء ينال من صحته. الجسم السعيد المتحقق يلفظ «النيكوتين». والجسم السعيد المتحقق لا يأخذ من الطعام، إلا احتياجه، والجسم السعيد المتحقق لديه مناعة قوية ضد أخطر الأمراض والفيروسات.. والجسم السعيد المتحقق والنفس السعيدة المتحققة، نتاج مجتمع سعيد، سوى، وصحى.. وهذا ما لا يتحقق فى عالمنا المعاصر.

كهنة الثقافة وكهنة الأديان

مثلما نعانى من الإرهاب تحت ستار، «الديـن» توجـد ظـاهرة أخـرى موازية هى الإرهاب تحت ستار «الثقافـة». مثلمـا هنـاك جماعـات تقـوم بتكفير البعض، والمطالبة بـإهدار دمـه، وتصفيتـه جسـديا باسـم. الديـن. هناك «شلل» تقوم بتكفير البعض فكريا، وإهدار دمـه إعلاميـا، وتصفيتـه أدبيا باسم الثقافة.

مثلما هناك جماعات تدعى امتلاك الحقيقة الدينيـة، نجـد جماعـات تدعى امتلاك الحقيقة الثقافية.

الأولى: تزعم أحتكار تفسير الدين، والحكم على المؤمنين والمؤمنات.

والثانية: تحتكر تفسير الثقافـة والفـن والأدب والحكـم علـى المفكريـن والمفكرات.

امتـلأت حياتنـا الثقافيـة بــ «الكهنـة» أغلبـهم مـن الذكـور، الذيـن يسـترزقون مـن التفقـه فـى تصنيـف الأدبـاء والأديبـات، ونقـد المبدعــين والمبدعات. ولديهم قائمة اغتيــالات معنويـة، لكـل مـن لا يـؤدى طقـوس الطاعة والولاء، ولكل من يتعفف عن تقديم القرابين..

ولديهم أيضا، قائمة اتهامات جاهزة للانقضاض علـى كـل أديـب، أو أديبة، مبدع أو مبدعة، أثبت وجـوده مـن خـارج عباءتـهم، وليـس فـى حاجة إلى رضاهم وبركتهم وشفاعتهم.

والكارثـة أن هـؤلاء «الكهنـة» الذيـن نصبـوا أنفسـهم «آلهـة» الثقافـة والفكر والإبداع والنقد يعرفون الطريق أكثر من غيرهم إلى وسائل الإعـلام، وبالتالى هم ينجحون فى اختراق الرأى العام وإفساد الذوق الثقافى..

إن كهنة «الأديان» يحشون أدمغة الناس بمـا ينسجم مـع تفسيراتهم الشـخصية للديـن، ومصالحـهم السياسـية الخاصـة.. وكهنــة «الثقافــة» يحشون أدمغة الناس بمن يدعم رؤيتهم الخاصة للثقافة والإبداع..

وكما يقف أصحاب الإرهاب الدينى طبقـة عازلـة بـين النـاس والديـن الحقيقى، يحجب أصحاب الإرهاب الثقـافى عـن النـاس بجـدار سميـك معنى الثقافة الحقيقية وجوهر الإبداع الأصيل.

إن كهنة «الثقافة» وكهنة «الأديان» يدعمان بعضـهما البعـض.. وهمـا ظاهرتان يفرزهما مناخ واحـد وترسـخهما منظومـة واحـدة أو لنقـل إنـهما وجـهان لعملـة واحـدة، وإن كنـا نـرى أن كهنـة «الثقافـة» هـم الأكـثر خطـورة ، فاسـتمرار الإرهـاب الدينـى مرهـون بســيادة الفكـر الواحــد، والتعصب لرؤى فكرية محددة تفرض حصارها وسيطرتها، وهذا بالتحديد مـا يرسـخه كهنـة «الثقافـة» هـم يزرعــون بـذور «التعصـب» الفكـرى و«التزمت» الإبداعى، كأسلوب حياة ونمط للتفكير.

حركة الحياة، وإن أصابها بعض التراجع، هى دائمـا نحـو الارتقـاء، ولذلك فإن أصحاب المؤسسـات «الكهنوتيـة» وأنصـار الفكـر «الكـهنوتى» فى الدين والثقافة على حد سواء، هم إلى زوال.

حضـــارة الصخب

هناك حكمة تقول: إن الإناء الممتلئ هادئ الصوت، بينما الإناء الفارغ يحدث صوتا عاليا.

مغزى الحكمة، أن هناك علاقة عكسية، بين وجود الشيء، والامتلاء الفعلى به، وبين حدوث الصخب.

تنبع أهمية، وخطورة هذا المعنى، أنه يمتد ليشمل ليس فقط الأشياء، ولكن البشر، والحضارات أيضا.

فالإناء الممتلئ هادئ الصوت.

والإنسان الممتلئ هادئ الصوت..

والحضارات الممتلئة هادئة الصوت..

وحين نتأمل حالنا - خاصة فى الأونة الأخيرة - تصدمنا حقيقة سافرة الوجه، أننا مجتمعات شديدة الصخب..

هناك كمية من «الزعيق» تحاصر حياتنا لا يبررها أى منطق، سوى أننا أصبحنا نعانى بدرجة مرعبة من «الخواء» الفكرى والروحى.

إن «الخواء» يولد عدم الثقة. ويفجر عدم الثقة - بدوره - أشكالا مختلفة من التوتر. ويكون الصخب فى الحوار، وفى السلوك ضرورة نفسية لتفريغ شحنات التوتر، وأيضا للتعويض عما هو غائب، ونفتقد إليه داخلنا، كما أن الصخب - بحكم طبيعته التى تثير التشويش - يمنع

صوت العقل الهادئ من الاشتراك فى المجادلة، وكشف الحجج الواهية أو المفتعلة لأصحاب النبرة الزاعقة، وبالتالى يكون خير ميكانزم دفاع عن وجود هش، مهتز لا يحتمل النقاش المنطقى الجاد.

والملاحظ فى حياتنا، أن هناك مسألتين تأخذان نصيب الأسد من الصخب ألا وهما الفضيلة، والوطنية.

هناك حساسية مرتفعة الصوت تجاه قضية «الأخلاق»، وهناك حساسية مرتفعة الصوت تجاه قضية «سمعة الوطن».

إن المجتمعات القوية أخلاقيا ليست فى حاجة إلى الحديث الصاخب، المتضخم عن الأخلاق، ولا تدعو إلى الفضيلة بالزعيق، والأوطان التى أرست دعائم الانتماء إليها فضمنت حقوق الإنسان لكل مواطن، ومواطنة لا تستخدم تعبيرا مثل، سمعة الوطن، هى تعى أن سمعتها لا مرجع لها إلا ما تحققه على أرضها من عدالة، ومساواة بين جميع أفرادها . إن تعبير «السمعة» هو مصطلح أخلاقى أيضا، ارتبط تاريخيا، بما خلفته المجتمعات الذكورية من سلطة الرقابة، والوصاية على جسد المرأة بشكل خاص. ومحدد، ونظرا لأن قيمة الشرف للرجال فى هذه المجتمعات ارتبط بسلوك النساء فإننا نستطيع تخيل مدى حساسية، التداعيات الأخلاقية التى تثير تعبيرا مثل «سمعة البلد» أو «سمعة الوطن».

إن الخواء، كما أنه لا يستقيم مع الهدوء ، لا يستقيم أيضا مع التواضع، إن السنبلة الممتلئة بالقمح تكون فى وضع انحناء، بينما تأخذ السنبلة الفارغة وضع الوقوف.

الإنسان (أو المجتمع) الممتلئ محصن ضد حماقة الاعتقـاد، إنـه خـير الناس، وخير المجتمعات، ولا يـهاب التعـايش مـع «الآخـر» علـى قـدم المساواة..

على العكس فإن الإنسان (أو المجتمع) الخـاوى لا يعـرف إلا العلاقـة العمودية، التى تقوم بين «أعلى» و«أدنى» وبـالطبع يكـون «الآخـر» أيـا كان هو «الأدنى» الذى يحتاج إلى التقويم، والتصحيح.

وفى معـاداة «الخـواء» للتعـايش السـوى مـع «الآخـر» فـإن أصحابـه يلهثون – فى المقابل – لإيجاد أى شـىء يمكـن أن يتملكـهم، ويسـتقطب طاقاتهم، وغالبا ما يكون هذا الشىء هو التعصب لزعيم سياسى أو نجمـة سينمائية أو عصر من العصور التاريخية الماضية، أو لاعـب كـرة قـدم، أو نمط صارم من ملذات العيش. المهم أن هـذه كلـها وسـائل هـروب لتفـادى المواجهة المباشرة، والحاسمة لحقيقة الخواء الداخلى.

ليس الخـواء الفكـرى والروحـى سمـة مجتمعـات دون غيرهـا، ولكنـه عنـوان عالمنـا المعـاصر، إن الحـروب، وسـفك الدمـاء، وأنظمـة اسـتغلال البشر، والعنف ضد الطبيعة، وإيقاع الحياة الصاخب اللاهـث، مـا هـى إلا حضارة عالمية خاويـة، مفلسـة الفكـر، والمعنويـات، وإن ملكـت ذروة العلم، والتكنولوجيا.

التفلسف ليس حكرا على الفلاسفة

هناك خطأ شائع أن الفلسفة رفاهية، وأن فعل التفلسف هامشى، غير ضرورى، وليس من أساسيات العيش تقوم به أقلية، منعزلة، مستريحة، إنه فعل يجد متعة فى اللعب بالألفاظ وتعقيد ما هو بسيط، وتجريد ما هو مجسد، وإضفاء الغموض على الشيء الواضح، وبالتالى، فإن الأولوية لابد أن توجه إلى المشاكل اليومية الملتصقة بحياة الناس، فإذا ما حلت المشاكل وسمح الوقت، فلنتفلسف.

أن هذا المنطق قدر ما يتهم الفلسفة، والتفلسف، يتهم أيضا الإنسان، وهو منطق يجهل جوهر الفلسفة، ويتغاضى عن حقيقة لا مهرب منها، وهى أن الإنسان حيوان يتفلسف.

نحن نرفض النظرة التى تؤجل التفلسف إلى حين أو تضعه فى جانب، بينما تضع الإنسان والحياة، فى جانب آخر إن التفلسف جزء لا يتجزأ عن الحياة، والفلسفة، كما أرادها الفيلسوف موريس بلوندل، لها صيغة الفعل الإيجابى، ومتشابكة مع السلوك.

نحن نعتقد أن السبب الحقيقى، وراء ما يشعر به الإنسان فى كل مكان، من قلق، أو توتر، أو فقدان البهجة، أو اضطرابات عضوية ونفسية، يكمن فى غياب النفس المتفلسفة.

نحن لا ننكر أنواع السعادة التى قد تمر بالإنسان هناك سعادة فى الحب، والعمل، والصداقة، وتحقيق الهوايات، لكن هذه السعادات، وغيرها، قصيرة العمر، لا ضمان لها، وهى فى أوقات الأزمات الروحية العنيفة، تفشل فى منح الإنسان الصلابة الداخلية المطلوبة.

إنها الفلسفة، وحدها، التى تعطينا مناعة قوية، ضد الأزمات، الفلسفة وحدها، هى القادرة على منحنا مذاقا مختلفا من السعادة. مذاقا تفتقده السعادات الأخرى، مذاقا غريبا، صعبا.

ومن صعوبته تتولد عظمة ما يمنحنا إياه، أكثر من هذا، أن السعادة الآتية من فعل التفلسف هى التى تجعل الإحساس بالسعادات الأخرى، ممكنا، وأكثر عمقا. بالتفلسف يصبح لكل شىء (مهما يبدو ضئيلا) قيمة إيجابية، ومتعة خاصة، بالتفلسف، يستطيع الإنسان انتزاع المعنى من أشياء متواضعة، وعلى هذا نقول: «أيها الإنسان تحيا، وتسعد، قدر ما تتفلسف » التفلسف حق للجميع، كالماء، والهواء، ودفء الشمس، وليس حكرا لأحد أو جماعة.

ترى ماذا نقصد بالفلسفة، وماذا نعنى بـ فعل التفلسف؟.

فى البداية، لابد لنا من التمييز بين الفيلسوف والإنسان الذى يتفلسف، إن الفيلسوف إنسان لا يتفلسف فقط، لكنه جعل من التفلسف مهمته فى الحياة، وشغله الشاغل.

يحيا الفيلسوف من أجل تلك المخاطرة الروحية الكبرى، نسميها «الفلسفة» ليبدع للبشرية، مذهبا خاصا به أو رؤية ذاتية للتفلسف،

تضاف إلى التراث الفلسفى. إن الفيلسوف هو الإنسان، الذى قرر أن تكون وظيفته، هى فهم، وتفسير الوجود.

إن دعوتنا إلى التفلسف، لا تعنى أن يتحول البشر كلهم إلى فلاسفة، إنها دعوة لأن يمارس كل إنسان فعل التفلسف، كيف يكون هذا؟ وكيف يتفلسف الإنسان غير الفيلسوف؟ كيف نتفلسف نحن البشر غير الفلاسفة؟.

البداية هى الرغبة المستمرة، فى إيجاد تفسير عقلى، لما يحيط بنا من أشياء، وعلاقات وظواهر وقيم. إن جوهر فعل التفلسف، يكمن فى إجهاض كل ما يعوق حركة العقل الناقد المتسائل.

إن لكل تجربة شخصية بعدا فلسفيا، بمعنى أن كل تجربة إنسانية تحوى خصوصية إنسان معين فى زمان، ومكان محددين، لكنها فى الوقت ذاته، تتجاوز ذاتية وخصوصية ذلك الإنسان لتلمس آفاقا إنسانية يواجهها البشر فى كل زمان ومكان ونقصد بهذا معنى الحياة ! ومصير الوجود ! ما هية الموت ؟ لماذا المرض، والحزن ؟ ومكان الذات فى الكون الكبير؟.

إنها أبعاد فلسفية نلمسها جميعا، فى أوقات الشدائد، لا نريد أن يكون التفلسف، أى التفكير فى معنى الحياة، استثناء بحكم حادثة موت، أو مرض، أو فشله، نريده كالبوصلة على الطريق ترشد وتهدى وتمنح العزاء.

إن الرغبة المستمرة فى الفهم، تجعلنا ندرك أن التجربة فى حد ذاتها ليست تافهة، أو مهمة، القضية هى كيفية النظر إلى التجربة . القضية هى كيف نتجاوز ما هو جزئى وشخصى، وعابر، وزمانى، إلى ما هو كلى، وعام، وأصيل، ولا زمانى، وهى كيف يلمس الإنسان من خلال ما يخصه، ما يخص كل البشر.

إن الرغبة المستمرة فى الفهم، تحقق تنوعات من المعرفة يبدؤها، ويعمقها، معرفة الإنسان لنفسه وها هو ذا سقراط يلخص جوهر التفلسف بأنه، «إعرف نفسك» . لقد اعتبرت معرفة النفس، أيضا فضيلة، وقيمة أخلاقية كبرى، بل إن هناك من قال: إن معرفة النفس، هى المعرفة الوحيدة القابلة للمعرفة، أو للتحقق والإنسان الجاهل بـ ذاته، لن يعرف شيئا أو أحدا.

تمنحنا معرفة النفس، الثقة، والإرادة، وتحمينا من الإنزلاق فى حماقات البشر، ولقد ارتبطت دائما المعرفة بـ هالة من التحريم والاتهام فالذات العارفة، مصدر خطر للمجتمعات المتسلطة القائمة على التجهيل، والتضليل، وتجزئة المعرفة . قد يتساءل سائل، هل ندعو الإنسان الفقير المظلوم، المقهور، إلى التفلسف ؟

إذا كان جوهر التفلسف، هو الفهم، فإن الإنسان الفقير، المظلوم، المقهور، يكون أحوج الناس للتفلسف..

بمعنى أن يتساءل عن وضعه الخاص، لماذا أنا فقير؟ لماذا أنا مظلوم؟. ولماذا أنا مقهور؟. وبالتالى يستطيع أن يرتد إلى أصل الأشياء، فيتعمق

التساؤل لماذا الفقر، فى العالم، ولماذا الظلم والقهر؟ إن استمرار الفقر، والظلم، والقهر فى العالم، يرجع إلى أعتبار التفلسف رفاهية، وبالتالى يسكت الفقراء، والمظلومون، والمقهورون، عن التساؤل والفهم، وبالتالى تتعطل قواهم عن التغيير.

إن التفلسف، والتساؤل عن أصل الأشياء عملية مستمرة تنمو مع الممارسة، وهذا ما قصده الفيلسوف كانط، حين قال «نحن نتعلم التفلسف من خلال التفلسف.

الشيء الغريب، أن الإنسان يبذل الجهد ليتعلم كيف يحصل على الثروة، والمناصب، والشهرة، لكنه يصاب بالخمول. إذا كان الفهم والحكمة، هما الهدف، لماذا يضن الإنسان بالجهد، والمثابرة، على الشيء الوحيد، مانح القوة فى الحياة؟..

قد نستطيع العيش فى استغناء عن انجازات العلم، والفنون، ومزايا الفلوس والشهرة، والصداقات والحب، لكننا لا نستطيع العيش، دون التفكير فى غاية حياتنا، والقلق من أجل وجودنا، والتساؤل عن معنى الوجود. يقول «البير كامى» : إن الإنسان ضحية ما يدركه من حقائق فحين يعترف الإنسان بـ حقيقة ما، لا يمكنه الهروب منها، وتصبح أمانة فى عنقه واجبة السداد وبالتالى فإننا لابد أن ندفع ثمن التفلسف ثمن التساؤل عن معنى حياتنا الذى هو – فى نهاية المطاف – معنى الكرامة الإنسانية.

الطبيعة أنثى حاضرة للاغتصاب

لقد أجمعت أحدث الدراسات البيئية على أن ما سببه البشر من انتهاكات للتوازن الطبيعى للبيئة، هو مسار مؤكد نحو تدهور الحياة، بل انهيارها على كوكب الأرض.

وإذا لم يغير البشر من عقلية التعامل مع الطبيعة، والموارد البيئية، فإن الحياة ستصبح مستحيلة للجميع فى المستقبل القريب، الأمر الذى لا يترك للدول سواء المتقدمة صناعيا أو النامية رفاهية الاختيار. إن تغيير العقلية السائدة تجاه الحياة غير ممكن فى ظل المقاييس غير المتكافئة التى تحكم العلاقة بين الدول الصناعية الكبرى والدول النامية الصغرى، وهو أيضا غير ممكن فى ظل عدم توافر العدالة الاجتماعية على مستوى البلد الواحد. وهو ما يعبر عنه فى أدبيات البيئة أن ما هو «عالمى» يوجد فى «المحلى».

ومع ضرورة تغيير النظم الاقتصادية والاجتماعية التى تحكم العالم، وحتمية تغيير العقلية تجاه الطبيعة والبيئة، هناك أهمية كبرى لتغيير العادات الشخصية السلوكية للأفراد، لابد أن تصبح رعاية البيئة والحفاظ عليها جزءا متأصلا فى الوجدان يظهر تلقائيا فى أبسط سلوكيات الإنسان وليس مجرد إيمان نظرى يفتقد المصداقية فى الواقع. وتبدأ هذه السلوكيات من البيت، وتمتد إلى الشارع وأماكن العمل والتجمعات المختلفة، فالتغير هو فى النهاية مجموع الأفعال الفردية المستمرة والموجهة

نحو هدف محدد، وهذا ما نقصده حين نقول بسد الفجوة بين ما هو «عام» و «خاص» أو بين ما هو «سياسى» و «شخصى».

لقد اتفق علماء البيئة على أن الدول الصناعية الكبرى نتيجة لتقدمها الصناعى والتكنولوجى هى التى شاركت ومازالت تشارك بنصيب أكبر فى تلويث البيئة العالمية.

ويقتضى المنطق العادل تبعا لذلك أن تتحمل هذه الدول الثمن الأكبر فى حل مشكلات البيئة، وانتهاك التوازن الطبيعى للحياة ، هذه الدول الصناعية الكبرى مدعوة للتخلى عن قيم السيطرة والتعصب والاستغلال وهوس الاستهلاك. إنها القيم التى تعكس نفسها فى المزيد من «قهر» الطبيعة و «تدمير» الموارد البيئية و«إهدار» حق الأجيال القادمة فى بيئة نظيفة خضراء متوازنة آمنة.

هناك احتياج لأن تتسم القوى الاقتصادية الكبرى متشابكة المصالح بالرشادة والتواضع وأن تؤمن أن موارد البيئة حق لكل الشعوب وكل الأجيال.

حقا لقد وصل عالمنا المعاصر إلى مستويات غير مسبوقة من التقدم العلمى والتكنولوجى، لكن البشرية فى أيامها الأولى كانت أكثر سعادة وأكثر إحساسا بالتناغم والتصالح مع الطبيعة والبيئة.

صحيح أننا الآن نعرف أكثر، نستهلك أكثر، نملك أكثر لكن يبقى المحك الحقيقى هو نوعية الحياة، وأى إطار من القيم تتم فيه هذه المعرفة والاستهلاك والملكية، لقد أصبح الاستهلاك فى حد ذاته غاية نلهث

وراءها لحل مشكلات نفسية عديدة أولها وأهمها الإحساس بالعجز وعدم التحقق والخواء الداخلى.

أصبح العلم واكتشافاته فى انعزال عن أخلاقيات العلم.. والنتيجة هى سيادة حضارة ضد التحضر الحقيقى وضد سعادة الإنسان وضد حقه فى الشعور بالتناغم مع ذاته ومع البيئة المحيطة.

تزداد الضرورة كل يوم لخلق وعى بيئى جديد يتجاوز الحواجز الجغرافية والسياسية من أجل التوصل إلى أخلاق عالمية جديدة تساهم فيها جميع الدول.. أخلاق تستطيع نقل العالم من تسلط النسق «الهرمى» فى التفكير إلى ديمقراطية النسق «الدائرى».

والوعى البيئى فى جوهره هو خلق وتشكيل العقلية ذات الحساسية تجاه قضايا ومشكلات البيئة، وإدراك العلاقة العضوية الجدلية بين الإنسان والبيئة المحيطة من ناحية وبين البناء السياسى والاقتصادى والثقافى وانعكاساته على التعامل مع البيئة من ناحية أخرى. وفقا لهذا الوعى تكون مشكلة الفقر أو الظلم الاجتماعى من ملوثات البيئة وليس فقط المشكلات المادية مثل استنزاف الموارد الطبيعية، فالفقر أو الظلم الاجتماعى ليس أقل خطورة من انتهاك التوازن الطبيعى للحياة من قطع الغابات، أو تلويث المياه، أو الهواء، فالفقر يلوث كرامة الإنسان، والظلم ينتهك إنسانية الإنسان.

ونحن نحتفل باليوم العالمى للبيئة ، لا نتغافل عن حقيقة أنه فى العالم كله ، هناك ارتباط وثيق بين حركات تحرير المرأة وحركات الحفاظ على البيئة.

وهنـاك تيـار يعـرف باسـم التيـار النسـوى الأيكولوجـى والـذى يفسـر انتهاكات البيئة بأنها من إفـراز العلـم الذكـورى ذى النظـرة الاسـتعمارية للأرض والطبيعة والهواء والبحار والطيور والأشجار والنساء.

فالطبيعة أو الموارد الطبيعية ينظر إليها كأنها أنثى حاضرة للاغتصاب وإيقاع العنف والهجوم. إن كلا من الطبيعة والمـرأة همـا بمثابـة الحضـارة الذكورية جبهتان على الرجل أن يقهرهما ويخضعهما، ولذلك فإن تحرير الطبيعة وتحرير النساء غير ممكنين بدون التخلص من القيم الذكورية التى لم تنتج طوال تاريخها إلا التدمير والموت والحروب.

إن كل أشكال التفرقة تخدم بعضها البعض ولذلك فإن تغيير مقولة أن الإنسان (الرجل) سيد الطبيعة، مرتبط بتغيير مقولة أن الرجل سيد المرأة، وبتغيير مقولة أن الرجل الأبيض سيد الرجـل الأسـود، وأن دول الشمال تسود دول الجنوب، وأن الغنى سيد الفقير.

هناك احتياج إلى فلسفة جديدة لا أحد فيها سيد أحد آخر، ولا شعب سيد شعب آخر. نحتاج فكرا أكثر إنسانية قائما على المساواة والعدالة بين كل البشر وبين كل الشعوب.

إن الثورة البيئية التى تتزعمها النساء فى العالم مثلما ترفض اغتصـاب حقوق الطبيعة من أجل حمى الاستهلاك ترفض اغتصـاب حقـوق النسـاء وحقوق الشعوب.

العمل بين الإجبار والاختيار

العمل، حق، واجب، شرف، حياة. هذا ما يتردد دائما على أسماعنا. لكنه أيضا – وهو الأمر الذى تم نسيانه – مصدر للإحساس بالجمال، والبهجة.

إن ارتباط العمل بالحق، والواجب، والشرف، والحياة، ليس كافيا، لكى يحقق غايته المثلى، ألا وهى، تنمية ذات الفرد، وارتقاؤها المتجدد نحو آفاق رحبة، مبدعة، تشبع وجوده الأصيل.

إن الإحساس بالبهجة، والاستمتاع، والجمال، هو الشرط الذى يضمن، ألا يصبح العمل، نشاطا، معاديا لإنسانية الإنسان، مناقضا، لتفتح عوالمه الداخلية.

بدأ «التمتع» بالعمل، يكتسب اهتماما خاصا، متزايدا، من خلال الاهتمام المتصاعد، بتطبيق حقوق الإنسان، والتحرك نحو المزيد من «أنسنة» الظروف الاقتصادية، والاجتماعية، فى ظلها، يعمل، وينتج البشر.

لقد بدأ إدراك جديد مؤداة (عكس ما كان مثارا من قبل)، أن استفادة المجتمع القصوى، من الإنسان، مرهونة، بإطلاق أفضل ما فيه، من طاقات عقلية، وجسدية. وهذا لا يحدث، إلا إذا كان العمل، مصدرا للمتعة، والجمال.

يجد جوهر الإحساس الجمالى، فى العمل، جـذوره، وأيضـا شـروطه، فـى تجـاوزه، لقيـم الضـرورات الماديـة، والاحتياجـات البيولوجيـة. إن الإنسان المدفوع إلى عملـه، بسـبب الاحتيـاج إلى لقمـة العيـش، لا نتوقـع منه، أن يحس بالجمال أثناء ساعات العمل، ولا أن يكون مبدعا، خلاقا فى مجاله.

إن الإبداع فى أى نشاط إنسـانى، مرهـون أن يكـون وليـد إرادة حـرة عفوية، نابعة من رغبات الإنسان، وميوله، لا رغبـات، وميـول «آخـر». سواء كان هذا «الآخر»، صاحب عمل صغير، أو مؤسسة عملاقة.

الحل، هو أن يصبح الإنسان، فى حالة «تورط عـاطفى»، مـع العمـل الذى يقوم به.

إن أعظم، وأجمل إنجازات البشـرية (بـالمعنى الإنسـانى)، هـى تلـك التى شهدت تدخـل العاطفـة، حتـى فـى مجـال الرياضيـات، التـى قـد يعتبرها البعض جافة، فإن أكـبر علمائـها، توصلـوا إلى نظرياتـهم، ليـس بالمنطق وحده، ولكن بسبب الاستغراق الكلى المبـدع. والإنسـان، يصعـب عليه، الاستغراق الكلى، دون «تورط عاطفى».

وهكذا الحال، مع حقائق الحيـاة الكـبرى، التـى لا تـهبنا أسـرارها، إلا إذا أحببنا ما نبحثه، ونريد اكتشافه.

إن تراجـع دور «العواطـف» فـى العمـل، امتـداد لـتراجع دورهـا فـى الحياة بشكل عام. إن ما وصل إليه العالم، من تعاسة، وحماقة، وسـفه، ليس إلا نتيجة متوقعة، لفلسفة سائدة، تعلى صوت المنطق، على صـوت

العاطفة، وتقدس صوت الماكينات، والأجهزة المبرمجة، على صوت وجدان البشر.

نحن نستخدم كلمة «العواطف» بالمعنى المسطح، الذى تم تشويهه. فهى ليست الانفعالات السريعة الهوجاء، وليست ضعفا فى الشخصية، وليست قصر النظر فى الحكم على الأشياء. لكنها صوت الفطرة السليمة، والحدس المبدع، وحيوية الحواس، وتجسيد إقبال الإنسان على الحياة، فى ذروة انطلاقه، وأصالته.

ليست اليوتوبيا (أو المدينة الفاضلة)، إلا مكانا، يتطابق فيه، عمل الناس، مع لعبهم، أو شغلهم، مع هواياتهم، ولأننا لسنا فى اليوتوبيا، ولكن فى عالم، تحركه علاقات السيطرة، والملكية، وعدم العدالة فإن الإنسان، الذى يقول عن عمله «هذا بالتحديد ما يناسبنى» هو بالضرورة استثناء . إن الفارق الجوهرى بين الفنان، والإنسان غير الفنان، أن الفنان إنسان، يعمل ويتعب، ولكن عمله، هو لعبه. هناك علماء وفلاسفة، لم يروا العبقرية، إلا هذا التطابق، بين «العمل»، و«اللعب». فى هذه الحالة، لا توجد حدود، للإبداع، والاكتشاف، وتحفيز الإرادة، وأيضا للإحساس بالبهجة. إن الجهد الفكرى، أو الجسدى، مع العاطفة، يتضاءل، وقد لا يشعر به الإنسان. بل، وقد يكون مصدرا للشعور بالراحة، والبهجة الروحية.

قد يعتبر البعض، أن الحديث الأهم، والأكثر الحاحا، الآن، مع وجود البطالة، هو العمل، لسد الرمق، وتوفير لقمة العيش. وأن كلامنا، أحلام، ورفاهية لا مكان لها.

هذا منطق واقعى، وله وجاهته. لكنه مردود عليه، أن وجود مشكلات فى الواقع، لا يبرر التوقف عند حدودها، وعدم التفكير، فى «ما ينبغى أن يكون» . علينا بالبداية السليمة الطامحة، إلى أبعد نقطة، تمليها علينا الإنسانية، والعدالة. ثم يجىء الواقع ليضع حدوده، وعثراته. أليس مشوار الحضارة الإنسانية، هو محاولات الإنسان، لقهر هذه الحدود، والعثرات؟؟

ثانيا: لابد أن نوسع مفهوم البطالة، فالذى لا يعمل، هو، فى حالة بطالة، لا نقلل من شأنها ولكن الذى يعمل، تحت إجبار الاحتياج، ولا يربطه بعمله، إلا المقابل المادى، هو أيضا فى حالة بطالة، من نوع آخر، لا يقل خطورة، فى معناه، وأبعاده، وعواقبه الاجتماعية، والنفسية . بل إن هناك من يرى أنه خير للإنسان، ألا يعمل، عن القيام بأداء نشاط، يفقده إنسانيته، ويخرب علاقته بذاته وبالحياة. إن رقى ونهوض المجتمعات، هما مجموع رقى، ونهوض أفرادها. ولا رقى، أو نهوض لأفراد، يقضون حياتهم، فى أعمال، مجبرين عليها.

إن تغيير علاقة الإنسان، بالعمل، يتطلب تغييرا فى تصورنا وماهية الإنسان، ومكانته فى الحياة. وهذا يرتبط بتغيير فى أنظمة التعليم، والقيم التى نتبناها، ويرتبط عضويا بتحقيق العدالة الاجتماعية، التى توفر حدًا أدنى، من الأمان الاجتماعى والاحتياجات الأساسية، للناس بحيث يكون العمل (كما هو المفروض) حركة حرة مبدعة، باعثة للبهجة، والمتعة. وليس اضطرارية، باليد اليمنى، تعطى الإنسان أجرا، وباليد اليسرى، تسحب منه، إنسانيته.

مصرع «الأميرة» وتناقضاتنا الأخلاقية

فى دهشـة ، وغضب ، تفرجت على الضجـة الإعلاميـة ، مسموعة ، ومقروءة، ومرئيـة ، حـول مصـرع مـن يسـمونها «أمـيرة»، وعشـيقها الملياردير..

وصف الحـادث بأنـه «مـروع»، و «مأسـاوى»، هـز ضمـير العـالم، ووجدان الناس، وأثار الحزن، والتعاطف، من الشعوب، والدول..

ياله من عالم مقلوب. يبيع الأوهام المنبثقة من سـطوة المـال، والنفـوذ، والخواتم الألماظ، والعرش الموروث، لعقول ونفوس أدمنـت الوهـم، وتأليـه قلة صنعتها أنظمة عنصرية..

تحدث كل يوم، مصائب «مروعـة»، «مأسـاوية»، لنسـاء لهـن قيمـة فكرية، وإبداعية، وإنسانية، ولا أحد يتذكرهـن بـ كلمـة. بـل يتعرضـن للإدانة، والتشـوية، والإتـهام. والسـبب، أنـهن لسـن زوجـات سـابقات لملوك، وأمراء، لسن أمـهات لأوليـاء عـهد، ولسـن نصـف متعلمـات، أو عشيقات لمليارديرات..

وهناك رجال يفعلون ما هو أرقى، وأجدى، وأهم، من السـهر، ولـف العالم، مع نساء مطلقات. لكنهم خارج الاهتمام، وعلـى هـامش الأهميـة. والسـبب، أنـهم لا يمتلكـون الفنـادق الفـاخرة، والمحـلات التجاريـة، والمطاعم المتخصصة فى مأكولات البحر ومنتجعات الصيف..

يحدث كل يوم، أن يموت المرضى الفقراء، بسبب «الطب السياحى»، ولا أحد يعتبر هذا من الحوادث «المروعة»، «المأساوية». ويصرع الإهمال فى مختلف المواقع، ناسا أبرياء، ولا يحظى ذلك، بجزء ضئيل من الهوس الإعلامى، المصاحب لمصرع «أميرة»، وعشيقها..

فى مجتمعاتنا، تنتحر كاتبة مفكرة، وأديبة، مبدعة، وتبقى وسائل الإعلام على حيادها. لا تذكر الخبر، إلا فى ذيول الأخبار الهامشية، المتوارية..

وتظل الحقيقة المخزية، أن وسائل الإعلام تتابع حال «قطط» ممثلة، فرنسية، معتزلة، وفضائح نساء صنعتهن أضواء مزيفة، أكثر من معاناة امرأة، مصرية، عربية، أوصلتها الكتابة للقفز من الطابق العاشر. تبقى الحقيقة المؤسفة، غياب استقلالية الأولويات، لوسائل الإعلام فى مجتمعاتنا، والتى تنبع من خصوصية الفكر، والقيم..

فى مجتمعاتنا، تسجن الفتيات والنساء، داخل أسوار حديدية من تناقض القيم الأخلاقية، وافتعال الفضيلة. يقتل الأخ، أخته التى تكبره، لمجرد شك فى إعجابها برجل، جاءها فى المنام. يذبح الزوج زوجته، لأنها قامت بواجب الضيافة لأخيه، أو ابن خالتها، أثناء غيبته.. تقام الدعاوى فى المحاكم، ضد اختلاط الرجال بالنساء فى أماكن العمل، والمترو، وحمامات السباحة، وطوابير المصالح الحكومية. يتم هذا وغيره، على مرأى ومسمع الجميع، وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين، ولا أحد يصف الأمر، بأنه «مروع»، «مأساوى»..

هذه المجتمعات، المتزمتة تجاه نسائها، تمجد من خلال الإعلام «أميرة»، لا تعرف حياتها العاطفية، أدنى التزمت..

إن حق الحب للمرأة فى مجتمعاتنا، ولن نقول الخيانة، أو تعدد الغراميات، محكوم عليه بالانحلال، والإباحية. وبسببه يهدر دم المرأة، وحياتها. بل إن الانحلال، أو الإباحية، كمفهوم أخلاقى، لا يعنى عند مجتمعاتنا، إلا «امرأة فى حالة حب أو عشق»..

فى مجتمعاتنا، ترتكب المرأة جرما لا يغتفر، فى حق «الشرف»، لو جلست «محتشمة»، فى «مكان عام»، مع زميل، أو قريب من العائلة، تتحدث عن السياسة، أو الفن، أو القهر الموروث..

أما مع امرأة أجنبية، تحمل لقب «أميرة» فإن الجهر بالعشق، و«الخلوة غير الشرعية» والصورة شبه العارية، على اليخوت، هذه أمور «حلال»، يتم تقبلها، وتبريرها، ولم لا؟ أن لقب «أميرة» به سحر. يقلب الحرام، إلى حلال، والمحال إلى ممكن، ويجعل من البشر شبه آلهة..

تنبهر مجتمعاتنا بأخبار عشاق «الأميرة»، ويتسابق الناس لمعرفة، آخر رغباتها العاطفية والجنسية. هى نفسها المجتمعات، التى تبتر بالختان جسد المرأة، خشية أن تشتهى رجلا، غير زوجها « المحلل» و «المقنن»، ولو كان فى الخاطر، أو الحلم..

السلوكيات نفسها التى تجعل من المرأة، فى مجتمعاتنا «منبوذة»، و«منحلة»، و«ساقطة»، نجدها مع «الأميرة»، تصنع منها «ضحية»، و«أسطورة»، و«مثل أعلى»..

ولسنا ندرى، ما المقصود بـالضحية ؟ أكانت تصحو وتنـام علـى مذلـة الاحتياج إلى لقمة عيش ؟ هـل كـانت تعيـش فـى حـى تغرقـه المجـارى الطافحة ، وأكوام القمامة ، وتحاصره ضوضاء تقتل الأعصاب ؟

حقائق يعيشها غالبية الناس فى مجتمعاتنا ، ولا تصلح أن تجعل مـن الإنسان ضحية . أم تراها كـانت ضحيـة مصـادرة رأيـها فـى كتـاب، أو محاصرة حريتها فى التعبير والحركة . أو لعلـها تلقت خطابـات تـهديد بالقتل، وطالب البعض بإهدار دمها .

وما المقصـود بوصـف تلـك الأمـيرة، بالأسـطورة؟ هـل كـانت عبقريـة الذكاء، أنتجت مـا فـاق الأوائـل، فـى العلـوم، والآداب، والفنـون؟ هـل توصلت إلى نظريات جديدة، تفسر نشأة الكون، وتركيب الـذرة، وكشـف أسـرار الإبـداع؟ هـل كـان لديـها قـوى خارقـة، تعطيـها مناعـــة، ضـد الشيخوخة أو نمو الخلايا الخبيثة، وقـدرات خاصـة لكشـف الغيـب؟ أم ترى كان لديها غـير مـا عنـد البشـر العـاديين، سـبعة أصـابع فـى اليـد الواحدة؟..

وماذا عن «المثل الأعلى» الذى تجسده؟ هل تركت وصيـة بـأن تـوزع ممتلكاتها على المساكين، والمحتـاجين؟ أم هـى رحلـة كفاحـها المريـرة، لتحصيل أعلى درجات التعليم، والمعرفة؟..

لقد اهتز ضمير العالم، بسـبب مصـرع «الأمـيرة» وعشـيقها المليـاردير. غريب ضمير العالم. أحزانه طبقية، عنصرية، مثل مقاييسه، وأنظمته. لم تهزه بشعرة واحدة، المذابح الجماعيـة للرجـال والنسـاء، والأطفـال، فـى

الجزائر على أيدى الإرهاب. ولا تتحرك مشاعره المتعاطفة، ضد المجازر التى تشنها السلطات الإسرائيلية، ضد أهل فلسطين، وجنوب لبنان، ويموت الأطفال كل يوم، فى العراق وليبيا، بسبب الحصار الاقتصادى الأمريكى المتعمد، ويبقى ضمير العالم، ساكنا، مرتاحا، ماذا تكون حياة امرأة فلسطينية، أو رجل من الجنوب اللبنانى، أو طفل صغير فى ليبيا، أو العراق أو الآلاف منهم، مقارنة بـ حياة «أميرة»، غارقة فى الرفاهية، كل أزمة حياتها، كيف تواجه العالم بأمر عشاقها الأثرياء؟ أنها عنصرية، إنسانية، وأخلاقية، لعالم مشوه الأولويات، مقلوب القيم، عالم «الفضيلة» فيه، لمن يدفع ثمن «اللا فضيلة»..

نحن لا يهمنا حياة «الأميرة» فى حد ذاتها، ولا يعنينا حياتها الشخصية، ولسنا نبالى لو تم طلاقها، أو زواجها وكان لها عشاق، أم لا. ولسنا أيضا، فى موقف الحكم الأخلاقى عليها كما فعل البعض. الذى يهمنا، هو كيف يفجر حادث مثل هذا، تناقضاتنا الأخلاقية، وإلى أى مدى، يكشف عن مقاييسنا الإعلامية، وأولويات تفكيرنا..

فى عالم تحركه التفرقة بين البشر، من كل شكل، ولون، يتضاءل «داخل» الإنسان. وتستمر المحاولات لقهر حقيقته المتفردة وطاقته على المقاومة. ولا يتم هذا إلا بتضخيم العوامل الخارجية المزيفة المصنوعة، من شهرة، وثراء، وألقاب..

فى هذا العالم يكون من المنطقى جدا، والطبيعى جدا، التعتيم على نساء، ورجال «يشتغلون»، «يفكرون»، «يبدعون»، «يعانون» بشكل حقيقى نابع من «الداخل». والوجه الآخر لهذا التعتيم، أن تقفز أخبار مصرع «أميرة» وعشيقها، إلى دوائر الضوء، والأحاديث الأسطورية..

أخلاق الحرية وأخلاق الكبت

منذ أيام ، قرأت مقالات لأحد الكتاب ، يحذر فيه من تأثير (الدش) على أخلاقنا بشكل عام كمجتمعات إسلامية ، وعلى أخلاق الفتيات بشكل خاص . يقول الكاتب أن (الدش) ، كما هو متاح حاليا ، فى عصر السماوات المفتوحة ، يمكنه أن يلهى الفتيات عن الدراسة ، وعن العقائد الدينية ، ويسبب انشغالهن بالجنس ، مما يعد خطرًا بالغا على الأخلاق .

وعلاجا لهذا ، أوصى الكاتب بضرورة عمل ميثاق شرف دولى ، ينص على احترام تقاليد وأخلاق المجتمعات الإسلامية ، وضرورة وجود (رقابة) على مستويين . المستوى الأول ، رقابة (أسرية) ، والمستوى الثانى رقابة (حكومية) تعمل من خلال أجهزة للتشويش والتحكم . ياله من منطق غريب .

مع كل مشكلة تواجهنا ، لابد أن نفضح كراهيتنا المتأصلة ، وعداءنا التاريخى للحرية . نخاف (الحرية) ، وعلنا نناصبها الخصومة على طول الخط . مع كل مشكلة هناك تحفز مسبق لـ (توريط) الحرية ، واتهامها بأنها المحرض .

أصبح القهر عشقا نزهو به ، ونتيجة التراكم الطويل ، امتزج القهر بدمنا ، واختلط بملامحنا . أصبحنا نتسابق فى تقديم (المديح) ،

و (الغزل)، فى كل ما يخدم منظومة القهر ، مثل (الرقابة) ، (التحكم) ، (الوصاية) .

إن إهمال الدراسة ، أو الانشغال بالجنس ، أو تراجع العقائد الدينية ، سوف يعالج الفتيات عن طريق المزيد من (الرقابة) الأسرية، و(الرقابة) المحلية ، و(الرقابة) الدولية .

إن الرقابة ، والتحكم والوصاية، بكل أشكالها ، ودرجاتها، لا تؤدى فى المدى القصير ، أو الطويل ، إلا إلى الفساد والكذب .

فالرقابة وما شابهها من أجهزة الهيمنة على الفكر، والمشاعر، مجرد (رادار) خارجى ، يسجل المخالفات تمهيدا لإقامة العقوبات .

ولأنها شىء خارجى - ليس نابعا من قناعة داخلية ، فإنها على العكس تضعف من شخصية الإنسان ، وتعلمه الخوف . وبالتالى تفتح الطريق للتهرب ، والكذب ، والإخفاء ، وتلفيق الحجج . إن (الدش) برىء .

إن إنشغال الفتيات بالجنس ، أو تراجع العقائد الدينية ، أو إهمال الدراسة، لها جذور قوية داخل كل واحدة منهن .

إنها نتائج متوقعة للتربية القائمة على الكبت الفكرى، والقهر العاطفى، والتفرقة بين الفتى والفتاة ، وتطبيق نظام تعليمى، صارم لا يشبع ميول وهوايات وقدرات الفتاة . إنها سلبيات الفضيلة، المفتعلة، التى تغرس بالفرض، وقوة القانون، والخوف من العقاب .

إن هذا المناخ (المكبوت) ، و (المراقب) ، يظهر على السطح متماسكًا، متوازنا . لكنه قابل للانفجار فى أية لحظة .

(الدش) ، أو غيره ، هو مجرد فرصة تسنح للفتيات أن يعبرن عن الوجه الآخر الذى نرفض رؤيته ، أو حتى الاعتراف به ، وتم تحجيمه بكل مؤسسات المجتمع .

إن الفتاة التى لا يدعمها توازن داخلى، صحى ، وليس بها القدرة على حماية نفسها ، ليست محتاجة إلى(دش)،ولن تنتظر مشاهدة فيلم فاضح، لكى تنحرف .

والمرأة التى تحمل داخلها دوافع الخيانة ، لا تؤجل خيانتها إلى حين ترى فيلما عن خيانة امرأة . تماما مثل الإنسان الذى يريد أن يقتل . هناك أسباب قوية، تدفعه ، للقتل ، ليس من بينها أنه يتابع أفلام هيتشكوك ، أو روايات أجاثا كريستى .

إنه منطق يعامل الإنسان ، على أنه (شىء) ، أو مجرم بالفطرة أو ريشة فى مهب الريح . وهى فلسفة تتعمد تجاهل الدوافع الحقيقية المحركة (لسلوك البشر) . وفى الوقت ذاته ، تسىء النظرة إلى الحرية ، وتساهم فى تشويه سمعتها ، وترسيخ عشق القهر والقيد .

إن التاريخ يدلنا ، على أن مساوئ القهر ، والقمع ، والكبت ، كانت دائما أكثر ، وأشد ضررًا ، من بعض المشاكل المؤقتة التى قد تصاحب (وقد لا) مناخ الحرية .

من ميزات الحرية ، أنها تصحح مسيرتها مع الزمن، وتمنح فرصا متجددة للمعرفة، وبالتالى تخلق على المدى الطويل الشخصية السوية، المتكاملة، القادرة على التمييز ، والمؤهلة لحماية نفسها .

أما مناخ القهر ، فهو عبر الزمن ، لا يفرز إلا شروط إنتاجه ، ويسد كل نافذة للمعرفة والتطور .

إن الفتاة التى تعيش فى مناخ الحرية من الوارد بالطبع أن تجرب الخطأ . نقصد بالخطأ أى سلوك يضر بها ، أو يضر بغيرها . ولكنها فى الوقت ذاته ، لديها الفرصة على عدم الخطأ .

أما الفتاة التى يحاصرها القهر، وأخلاق الكبت المزيفة، فلا تملك إلا أمرين. إما الخطأ ، وإما التمسك بفضيلة كاذبة ، شكلية، لا فضل لها . نقول كاذبة لأنها تمارس بالفرض، ولم تمنح الفتاة حرية الاختيار؛ وهدفها هو إرضاء الآخرين ، لا تنمية الشخصية وتقويتها .

إن الفضيلة المفروضة بالجبر، هى الخطر الحقيقى على الفضيلة. فما يجعل الفضيلة أمرًا يشرف الإنسان، هو اختياره لها ، رغم أنه قادر على ممارسة الرذيلة .

إن الكاتب ينادى بميثاق شرف دولى يحترم العقائد والتقاليد الإسلامية .

لا توجد مجتمعات مثل مجتمعاتنا ، لديها هذا الخوف المرضى على عقائدها، وتقاليدها، وفتياتها . إن الذى يمكن أن يحمى عقائدنا الدينية ، هو عقائدنا الدينية نفسها ، والذى يحمى تقاليدنا هو تقاليدنا

نفسها ، وكذلك هـن فتياتنـا اللائـى بإمكانـهن حمايـة أنفسـهن . وليـس الحل مجرد ميثاق مكتوب على ورق، قادم من الخارج .

إذا اسـتطاعت عقائدنـا وتقاليدنـا أن تخـاطب أفكارنـا ومشـاعرنا وأحلامنا، وصراعاتنا، وتناقضاتنا، بشكل صحـى، متـوازن، ومتجـدد، تكون قادرة حينئذ على حماية نفسـها ، وكذلـك الأمـر مـع فتياتنـا . إذا استطعن تنمية قدراتهن الداخلية، الذاتية، على مواجهـة العـالم المتغـير، بسلبياته وإيجابياته، يكن حينئذ قادرات على حماية أنفسهن . فى ذلك الوقت، لن تحتاج الفتاة ، إلى (رجل) خارجى يحميـها ، أو مواعـظ فـى الأخلاق.

الألم تجربة جمالية

عانقت سحابات من (الجمال) لكننى لم أمطر ، ولم أنتش بلذة التحليق ، إلا حين امتزجت واحتفيت بلحظة الألم . بل الأكثر ، أننى أدركت أن الإحساس بالألم ، هو شرط الإحساس بالجمال .

لا شىء يؤهلنا لمعرفة – وتذوق الجمال ، مثل (ألم) تنزف له الروح ، وتضطرب معه كيمياء الجسد ، لا شىء يدربنا على التقاط دلالات (الجمال) المتناثرة فى الكون الرحب ، مثل (ألم) ، يعتصر الكيان ، ويأبى إلا أن نشرب حتى الثمالة رشفات المرارة .

أؤمن أن الحياة مأساة لا مفر منها ، والمأساة كما أراها ، هى حتمية الشعور بالألم .

(الألم) هو القماشة المتجددة التى من نسيجها صنعت الحياة . (الألم) هو قدر البشر .

(الألم) هو ذروة تعبير الحياة ، عن أعمق وأخص ، وأرقى مكوناتها .

تكمن مشكلة البشر فى كل زمان ومكان ، فى محاولاتهم المستمرة للهروب من نصيبهم الطبيعى من (الألم) .

فى كل عصر ، نفاجأ بأدوات جديدة ومسكنات مبتكرة، ونصائح غير مسبوقة ، كلها تلقن الإنسان كيفية قهر (الألم) .

يفعل الإنسان هذا ، مدفوعا بقناعة خاطئة ، أن الحياة بدون (ألم) ، حياة أجمل ، وأن (الألم) هو عدو الحياة وبالتالى فإن إعلان الحرب ضده هو أمر واجب ، ومشروع .

إن أكبر خوف فى حياة البشر ، هو الخوف من مواقف الحياة التى قد تنتهى بلحظة (ألم) .

إن الخوف المزمن المتضخم من (الألم) ، هو وراء ما وصلت إليه حياتنا ، من تراجع ، وفتور ولا مبالاة ، وتشابه ، ورتابة ، وقبح .

إن الحياة الخالية من (الألم) ، حياة لا طعم لها ، حياة بدون ألم ، حياة ماسخة ، جوفاء . حياة خالية من (الألم) ، عبء على الحياة . حياة خالية من (الألم) ، لا تستحق أن تعاش .

وإذا كان (الألم) ، هو المادة الخام ، أو النسيج الطبيعى ، اختارته الحياة لتصنع منه مأساتها النبيلة ، فإن تفادى (الألم) يعد خيانة عظمى للحياة .

إن الشخص الذى يقدم على الانتحار ، يقول لنا : (الحياة أكثر مما أطيق ، أو أن الألم يفوق قدراتى على التحمل) .

هذه حالة شخص تنقصه الشجاعة ولكن لا تنقصه الأمانة . لقد رفض الحياة كلها ، ومرة واحدة . هو شخص ضعيف نعم . لكنه ليس بخائن . هو شخص هش نعم ، لكنه ليس بانتهازى .

إنما الخيانة ، والانتهازية ، هى حالة أغلب الناس المستمرين فى العيش ، ويريدون استئصال (الألم) ، الذى هو نسيج الحياة .

هم يريدون الحياة ، لكنهم ينكرون عليها الإفصاح عن حقيقتها . هم يريدون الحياة بشروطهم هم ، لا بشروط الحياة . مثلهم مثل من يريد للطائر التحليق شرط أن يقص له جناحيه .

ولأن هذا محال ، فلا هم فى حالة موت ، ولا هم فى حالة حياة .

إن الرغبة فى استبعاد (الألم) ، تنطوى أيضا على خيانة للذات .

لا شيء مثل (الألم) ، يكشف عن طاقات الإنسان الكامنة ، وقدراته المختبئة، المفارقة المدهشة إنه كلما عظم (الألم) ، عظم الكشف .

تفادى (الألم) ، إذن هو تفادى معرفة أسرار الذات ، التى لا تمنح كنوزها إلا لإنسان ، يمنح نفسه للحظة (ألم) .

ولكن ما علاقة حديث (الألم) (بالجمال) ؟ نحن نرى أن لحظة (الألم) هى لحظة جمالية بكل المعايير .

إذا كان جوهر الإحساس الجمالى فى درجاته، وأشكاله المختلفة، هو لمس الخيط السحرى الواصل بين الذات والكون، وهى لحظة انسجام كلية، تفجر فينا عنفوان الدهشة، والتساؤل، والحيرة، والارتباك. إذا كانت هذه مفردات أساسية، فى الإحساس بالجمال، فإن لحظة الألم، هى لحظة جمالية من الطراز الأول، هى الأخرى ، تنطوى على انفتاح الذات ، على نفسها وعلى الكون .

هنا نتكلم عن (الألم) العظيم الحاد المجتاح دون هوادة ، ومعه تتورط النفس حتى الذورة . (تجربة الألم) ، تضطر الإنسان إلى إعادة ترتيب الأشياء ، وإلى معاودة تركيب الأسئلة ، والإجابات . هى لحظة تجبرنا

على تأمل الحياة من جديد ، لكشف هويتها ، وغايتها ، وحكمتها . مع (الألم) ، نحن نعيد صياغة معانى الخطأ والصواب ، التحسر ، وخيبة الأمل . هى تجربة تحرك السواكن، وتهز البديهيات المستقرة .

إن إعادة الترتيب ، والتساؤل ، والكشف ، وتحريك السواكن ، كلها قيم جمالية ، لا تخلو منها أى تجربة جمالية حقيقية .

وإذا كانت تجربة (الألم) فيها من (الجمال) ، فإن تجربة (الجمال) فيها من (الألم) . لا أتذكر يوما ، أحسست بالجمال ، بأى شكل من أشكاله اللانهائية، إلا وكان مقرونا بالشعور بـ (الألم) .

نعم .. المنظر الجميل مؤلم ..

والذكريات الجميلة مؤلمة ..

الفن الجميل مؤلم ..

والإنسان الجميل مؤلم ..

واستغرقت وقتا ، لإدراك (الألم) المختبىء ، وراء (الجمال) . هو (الألم) متعدد الأبعاد . الجمال مؤلم ، لأننا ندرك ، أنه مؤقت وأن بقاءه درب من المحال ، والإنسان مفطور على اللهث وراء الخلود .

الجمال مؤلم ، لأننا فى مواجهته لا حول لنا ولا قوة ،. إن لحظة الخضوع الكامل المطلق للجمال ، مؤلمة للإنسان الذى يرى الحرية ، هى غاية الوجود .

قد يستطيع الإنسان مقاومة إغراءات السلطة ، والجاه ، والثروة والشهرة ، ونداء الشهوات ، لكنه أمام (الجمال) ، عاجز ، لا يملك إلا الوقوع فى أسره . والعجز إحساس لابد أن يثير فينا الألم .

(الجمال) مؤلم، لأن حواره معنا، هو حوار الشفرات، والإيحاءات، الرموز، وليس الحوار الصريح ، وبالتالى لا مفر من الشعور بالضآلة ، وعدم الندية .

وهذا بلا شك ، مثير قوى للشعور بالألم .

الجمال مؤلم ، لأنه للحظات معدودة . يطهرنا من مبدأ المقابل السائد فى حياتنا . فالجمال يطلب لذاته ، وليس من أجل غرض ، أو مصلحة .

علمتنى الحياة ، ألا أخاف لحظات (الألم). علمتنى أن أفتح لها الباب، أحسن استضافتها ، أتعطر، وأرتدى لها أجمل أثوابى، أجالسها، وأشرب معها نخب زيارة، لست من الحماقة أو التطفل لأسأل عن أسبابها .

علمتنى الحياة أن أستبشر خيرا ، وأتفاءل ، كلما تورطت فى (الألم) إلى أقصى نقطة ممكنة . أن أتألم ، إذن هناك مكافأة ما قادمة . أنا أتألم، إذن أنا أستحق الجمال المنتظر فى الأفق ، تعلمت أن (الألم) عملية جراحية للنفس ، بعدها تتطهر وتشف ، وتحلق ، فتصبح أكثر قدرة على احتضان (الجمال) المشع من الكون ، الإنسان القادر على التألم العظيم . هو وحده القادر على الإحساس العظيم ، وهو وحده القادر على إعطاء الآخرين ، إضافة حقيقية من المعرفة ، أو الفرح . بل إن الشعور

بالألم ، هو تعبير عن وجع الروح ذات الحساسية المرهفة ، التى توقعت الجمال ، وخاب ظنها .

محظوظ، هو ذلك الإنسان، الذى تنعم عليه الحياة بلحظات ألم، شرط أن يعرف كيفية التعامل معها. إن التعامل مع (الألم)، يحتاج إلى موهبة خاصة فريدة، تستطيع أن تصنع من المعاناة رؤية جمالية تعزف على الوتر المشترك بين الذات والكون .

إن تأمل الإنسان نفسه ، وهو يتفاعل مع (الألم) ينطوى على (متعة)، من الصعب على من تذوقها ، التفريط فيها . من (الألم) العظيم يُعرف البشر . إذا أردنا معرفة إنسان ، فما علينا إلا قراءة بطاقته الشخصية فى (الألم) . من رحم (الألم) ولد كل فن عظيم خالد ، وكل عشق عظيم خالد .

حين نتعلم فن الاحتفاء بـ الألم ..

حين نتعلم كيف نصادق الألم ونحاوره .. حين نتعلم أصول الارتماء فى أحضان (الألم) .

حينئذ فقط ، نبدأ الحياة الحقة ، ونعيش الوجود الأصيل .

عن الدين والحياة

نظرة إلى الطقوس الدينية

إلى متى سنظل نتعامل مع مشاكلنا ، وكوارثنا ، والتى تفاجئنا من حين لآخر ، بـ منطق (الترقيع) ، و(الطبطبة) ، والحقن بالمسكنات ؟

إلى متى سنظل نردد كلمات عزاء مستهلكة لا تجدى ، مثل (حوادث فردية لا تمثل ظاهرة) .. (بدع غريبة مستوردة) .. (قلة منحرفة مختلة العقل والإيمان) .. (مؤامرة صهيونية) .. (خطة مدبرة من أعداء الإسلام)..

ونحن فى مواجهة (عبدة الشيطان) ، ألسنا فى وقت يجبرنا على إعادة النظر فى تصورنا عن الدين ، ومفهومنا عن الإيمان ، والتدين ؟ ألم يحن الوقت، لكى نراجع علاقة الدين بالحياة المعاشة المتجددة ، والتى تقف على أبواب قرن جديد من الزمان ؟

نحن نرى أن (عبدة الشيطان) هو أفراز طبيعى ، متوقع ، لنمط الفكر السائد فى مجتمعاتنا ، وبالتحديد نمط الفكر الدينى .

إن أية قيمة (أو ظاهرة) إيجابية ، أو سلبية ، يتسم بها فرد ما ، أو جماعة ما ، ليست أمرًا عشوائيا، أو نباتا شيطانيا ، يظهر فجأة بالمصادفة. ولكنها فى ارتباط عضوى مباشر ، أو غير مباشر ، بتفكير ، ومشاعر ، وأحلام، وسلوكيات ، وتحيزات ، ذلك الفرد ، أو تلك الجماعة .

على سبيل المثال ، ليس (الأمان) - الذى أصبح أخيرًا كلمة مطاطة متكررة على ألسنة الجميع - الذى يسود مجتمعا ما ، (جينًا) وراثيا يحصل عليه بالفطرة دون جهد . وهو ليس هبة من السماء ، تنزل على البشر . (الأمان) ، هو (المكافأة الحضارية) التى يحصدها المجتمع، أو التى يستحقها الشعب ، بعد نضال طويل ، وجهد متراكم ، لترسيخ حقوق وحريات الإنسان فى العقيدة، والتفكير والعمل ، والنقد الحر والكرامة .

نحن مجتمعات تعانى من التأرجح بين قطبين متنافرين يستحيل التوفيق بينهما . القطب الأول ، هو مجتمع السلف . القطب الثانى ، هو المجتمع الغربى الحديث .

وتكمن المصيبة الأعظم ، أننا لم نأخذ من المجتمعين إلا السلبيات فقط.

من مجتمع السلف ، أخذنا قيم التزمت ، والتعصب ، حجب وعزل المرأة، ارتفاع النبرة الذكورية ، تمجيد الماضى ، نبذ العلم والتفكير العقلانى، سيادة الروح التواكلية والقدرية ، تضخيم النزعة العائلية القبلية، سيادة القيم العمودية التى بين أعلى وأدنى، تقديس الأشخاص، تأليه أزمنة ولت، وعداء الفن .

ومن المجتمع الغربى الحديث ، لم نأخذ إلا النزعة الاستهلاكية الشرهة ، تبرج المرأة وامتهان جسدها وإنسانيتها فى الإعلانات والملاهى، تقديس المنفعة الفردية ، إيقاع الحياة اللاهث ، تقديس المال والآلة عن الإنسان، ونقل أعمى لنظريات فى النقد والفكر .

وليس من الصعب ، ملاحظـة هـذا التـأرجح ، فـى بيوتنـا ، وأمـاكن العمل ، والشوارع ، فى وسـائل الإعـلام ، فـى المنـاهج التعليميـة ، فـى الأعمال الفنية ، فـى تحيزاتنـا الشـخصية ضـد الآخريـن ، وفـى الـرؤى الثقافية المطروحة على الساحة الرسمية ، وغير الرسمية .

منذ أيام ، شاهدت بالصدفة برنامجـا للمـرأة فـى التليفزيـون . مـرت الفقرات عن الطبيخ ، والغسيل ، والرجيم عاديـة . وحـين جـاءت فقـرة قابلت فيها المذيعة المفتى ، لابداء رأيه فى بعض قضايـا الصيـام بالنسـبة للمرأة ، وجدنا المذيعة بقدرة قادر ، وفى غمضة عين ، قـد تحولـت مـن (سافرة) إلى (محجبة) . وحين انتـهت الفقـرة مـع المفتـى ، فـورًا حـدث التحول مرة أخرى ، وعادت المذيعة إلى أصلها مـن كونـها (محجبـة) إلى (سافرة) .

لا أدرى ما هو تفسـير سـلوك هـذه المذيعـة ؟ أهـو اعـتراف رسمـى أن (التحجب) هو الشكل الأكثر إعلانا عن (التدين) وبالتالى هو الشكل اللائق لمقابلة المفتى؟ وإذا كان هكـذا ، فلـم لا تتمسـك بـهذا (التديـن) ، طـوال فقرات البرنامج ، وطوال أيام السنة ؟

وهل المفتى لا يقابل فى حياته ، إلا النساء المحجبات ؟

هنـاك أمثلـة عديـدة تحـدث يوميـا ، لكـن هـذا المثـال يجســد قمــة التناقض، وقمة التأرجح . والذى يجعله أكثر خطورة من غيره ، ومؤثرًا، أنه يطل من ساحة الإعلام الرسمى .

نحن مجتمعات نرقص على السلم ، لسنا كالمجتمعات التى ثارت ضد سلطان وتسلط الكنيسة فى العصور الوسطى ، واختارت بعد كفـاح طويـل

فصل الدين عن الدولة ، وإقامة المجتمع المدنى. حيث الدين علاقة شخصية يمارسها الفرد كما يشاء بينه وبين ربه ، وليس لأحد أن يسأله ، أو يحاسبه عنها. مجتمع يأخذ بمبدأ الصواب والخطأ لا الحلال ، والحرام .

ولسنا مجتمعات أدخلت الدين بشكل أصيل ، وحقيقى ، متجدد ، ومتناغم فى أمور حياتنا المتغيرة التى تزداد تعقيدًا ، وتشابكًا .

المأساة أن الدين عندنا لا هو (منفصل) عن الحياة بالشكل الذى يخدم تقدم الإنسان ، والدين والحياة . ولا هو (متصل) بالحياة بالشكل الذى يفيد الحياة والإنسان ، ويجعل من (الدين) طاقة تنويرية ، وشحنة تمرد ضد القهر والظلم والقبح .

هل يُعقل ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين ، أن الصفحات الدينية فى الجرائد ، والبرامج الدينية ، والمسلسلات الدينية ، وخطب الشيوخ فى الجوامع ، ومواعظ الدعاة ، وبعض كتابات (الإسلاميين) ، تدور حول غزوات حربية للمسلمين من قديم الزمن ، وعن تمجيد عصور سلاطين وخلفاء فات زمانهم ، وعن اعجازات لا علاقة لها بالحياة المعاشة ؟

هل يُعقل أن المسلسلات الدينية ، هى حكاوى بلغة غير مفهومة ، ورجال بذقون طويلة ، وعمامات ، ولا هم لهم إلا قتل مَنْ يسمونهم (الكفار) ؟

كيف يهدر خطيب الجامع ، الوقت والجهد والإدراك ، عند الشباب ، ليحدثهم بالساعات وعبر ميكروفونات شرسة النبرات ، عن عذاب القبر ، وعورات النساء ، وزهد الدنيا لأنها (فانية وغرورة) ؟

هل يُعقل أن مصر بتاريخها العريق ، وحضارتها المبدعة ، يُثار فيها جدل دينى ، حوله يتشاجر الناس ويفقدون ما بينهم من ود إنسانى ، عن (هل تدخل المرأة القرن الواحد والعشرين مغطاة أم سافرة ؟

هل يُعقل أن يُمنح وقت بلا حدود ، لراقصات من الدرجة العاشرة ، لكى يصبحن هن اللاتى يدلين بآرائهن فى الفكر ، والثقافة، والفن؛ فى حين لا تعطى إلا لحظات معدودة ، لأهل الفكر والإبداع ؟

نلوم الشباب ، ونحن لا نقدم له ، قنوات تبث قيم الثقافة العميقة، وأسس التفكير العقلانى الجاد ، ونخاطب الموروثات السلبية فى عقولهم بأسلوب منطقى ناقد . كيف نغرق الشباب فى حل فوازير مضحكة، والإنشغال بنجوم التمثيل، والكورة، ثم نتوقع منهم، خيرًا لأنفسهم ولمجتمعهم ؟

هناك شباب يعيش فى عناق مع أكوام القمامة ، وطفح المجارى ، والذباب والناموس ، محروم من بديهيات الحياة الكريمة كالماء، ثم يدخل هؤلاء الشباب الجامع ، فيعطيهم الخطيب درسًا فى (التدين) ويأمرهم بالاستغفار عن (ذنوبهم) ، والاستعداد الدائم لملاقاة الله ، لأن الموت لا ضامن له .

أى (ذنوب) ، يمكن أن يقترفها شاب يعيش وسط القمامة والأمـراض؟ عما تستغفر فتاة تعيش فى حجرة مع أسرة عشرة أفراد ؟ يكلمهم خطيـب الجامع عن الموت، وهم محرومون أصلا من فرصة الحياة. لماذا لا يحدثهم عن الذنب الأكبر الواقعين فيه ، ألا وهو الفقر ، والظلم ؟

لابد أن تؤدى (الصلاة الجماعية) ، إلى (عمل جماعى) ، ويحسن مـن أوضاع الناس ، أليس هذا هو هدف رئيسى للتجمع فى الصلاة ، وأليست أكبر الغايات من بناء الجوامع ، وأماكن العبادة ؟

كيف تواجهنا تحديات اقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، تشـتد كـل يوم وطأتها ، وما زال تفكيرنا فى الدين ، منحصـرًا فـى بنـاء الجوامـع ، ومسابقات مالية فى حفظ القرآن، وترميم واجهات الآثار الإسلامية ؟

نحن ننظر إلى الدين، علـى أنـه تركـة مجمـدة مخزنـة فـى صفحـات الكتب، ومجلدات الفقه، مسجونة بين طرقات زمـن لا يعيـش متغـيرات الزمن .

إنـه لأمـر مدهـش حقـا ، أن يكـون رد الفعـل لقضيـة شـباب (عبـدة الشيطان) ، القول بأن الحل هو المزيد من الوعظ الدينى، وتخريج دفعات جديدة من الدعاة، والشيوخ والوعاظ ، وبنـاء المزيـد مـن الجوامـع، لسـد الفراغ الدينى، والخواء الروحى لدى هؤلاء الشباب .

وليس مستغربا أن يصف البعـض ، هـؤلاء الشـباب بـالردة، والكفـر، وتخريب المجتمع، وإفساد نواميـس الكـون ، ثـم يطـالبون بإقامـة الحـد عليهم .

ثم دعونا نناقش الصورة التقليدية لشكل، ومضمون ما نسميه بـ (رجل الدين) .

مثلما تصورنا عن الدين منفصل عن الحياة ، كذلك أيضا صورة (رجل الدين) .

نحن نريد رجل الدين ، إنسانا بسيطا عاديا ، يعيش بين الناس، يعرف مشاكلهم عن قرب ، يأكل مما يأكلون ، ويلبس مثلما يلبسون، ويتكلم لغة بسيطة واضحة قابلة للفهم ، والنقاش .

نريد رجل الدين ، أن يكون نابضا بالحياة ، والدفء ، والمرح ، والابتسام. رجل يهتم بالشعر والموسيقى ، والغناء ، ويقف على أحدث ابداعات العصر من علوم ، وآداب ، وفنون .

ولم لا يكون هناك (امرأة دين) ، لها المؤهلات نفسها مثل (رجل الدين) ؟ إنه تعصب ضد النساء، وخدش جسيم لديمقراطية الأديان، ألا تدخل المرأة - نصف المجتمع - شريكة مع الرجل ، فى تفسير الأديان، وتعميق جوهرها ، ودعم ارتباطه بالواقع المعاش .

نحن كذلك نتساءل ، لم لا يكون المسلسل الدرامى الذى يتناول علاقة جديدة متساوية بين الرجل والمرأة ، أو بين الأستاذ والطلبة والطالبات، أو علاقة عادلة بين الحاكم ، والمحكوم ، هو مسلسلا (دينيا) من الطراز الأول ؟

مَنْ قال أن المسلسل الدينى ، هو العيش فى حواديت فات زمانها، تهيم فى ملكوت آخر ، ولا علاقة لها بأحلام ، ومعاناة الملايين من النساء ، والرجال، والأطفال فى بلادنا ؟

نحن منشغلون طوال الوقت ، ومؤرقون أكثر من اللازم ، بتكفير بعضنا البعض، وتصيد الهفوات ، للآخرين تمهيدًا لإتهامهم ، والمزايـدة عليـهم باسم الدين أو الفضيلة . أصبح لكل واحد فينا الحق ، فى تنصيب نفسـه (إلهًا) ، وللأسف يجد مَنْ يمهد له الطريق ، ويدعم دعواه . بداخل كـل منا (إرهابى) ، متحفز للهجوم حتى ولو بمجرد نظرة العين .

القضية فى رأينا ، ليست هل هناك ناس قريبون من الدين ، يعملـون فى سبيل الله ، وناس بعيدون عن الدين ، وعن الله .

القضية ، هى كيف يتحول الدين إلى دافع وجدانـى، يوحـد النـاس، ويذيب فى ود خلافاتهم الشخصية ، من أجل يقظة جماعية ضد عدوهـم الواحد المشترك ألا وهو الظلم ، والفقر ، والقهر ، والمرض .

ليست القضية ، هل الناس تؤدى الطقوس ، والعبـادات ، إمـا طمعـا فى الثواب ، أو خوفا من العقاب الإلهى ، أو رغبة فى الاستعراض أمـام الناس . ولكن القضية هى كيف تمهد الطقـوس ، والعبـادات ، إلى خلـق شخصية حرة التفكير ، قادرة على النقد المستنير لأمور الحيــاة ، ومؤهلـة للتمييز العقلانـى بـين الشـكل والجوهـر ، بـين الوسـيلة والغايـة ، بـين الثانوى والأساسى.

التحدى الأكبر ، هـو كيـف يتحـول حـب الله داخـل كـل مواطـن ، ومواطنة ، إلى نقد ذاتى مسـتمر لسـلوكياتنا اليوميـة ، وإلى يقظـة فكريـة مبدعة ثائرة ، ضد قهر الإنسان ، وتدمير كرامته .

إن الإنجـاز الأكـبر أمـام كـل القـوى المسـتنيرة هـو تضافرهـا لتحويـل (الدين) ، من انشغال ببناء الجوامع ، إلى انشغال ببناء الإنسان .

نحن نعتقد أن (عبدة الشيطان) ، ليسوا أكثر خطورة من (عبدة المال)، و (عبدة السلطة) و (عبدة التفرقة بين البشر) .

إنه مناخ واحد يفرز عبادات وثنية، تدمر الذات ، وتدمر الآخر .

منذ أن نسينا الله الكامن فى القلب ، والفطرة النقية ، واستبدلناه بنداء يزعقون باسمه فى الميكروفونات ، أصبح لكل واحد ، شيئا ما ، وثنا ما ، يعبده . ويستوى فى ذلك ، عبادة الشيطان ، أو عبادة الثراء، والشهرة ، أوعبادة السلطة، أو عبادة فيلات الساحل الشمالى، أو حمامات سيراميك يعلنون عنها على موسيقى (القالس) ، تصاحبها ميوعة فتيات أصبحن قدوة لجيل بأكمله .

حين يستعيد الله عرشه داخل قلوبنا ، حين يصبح نداء (الله أكبر)، صرخة احتجاج ضد الفقر والظلم ..

حين لا نسأل الإنسان عن ديانته ، ونسأله فقط عن عمله وسلوكه ..

حتى يصبح (التدين) هو المرادف أن يجد كل مواطن غير قادر، وكل مواطنة غير قادرة ، العمل ، والتعليم ، والمسكن ، والدواء ، والثقافة ، والكرامة ..

حين لا يعيش البعض فى عشش ، والبعض الآخر فى قصور رخامية ..

حين ننظر إلى الإيمان ، باعتباره مزيجا مدهشا بين الله والإنسان فى جبهة واحدة ضد الظلم ..

حين نتعلم كيف (نصادق) الله ، وكيف (نحب) الله ، لا أن نخافه ، ونرهبه .

حين تتحول الطقوس ، والعبادات ، إلى فعل لتغيير شكل الحياة ..

حينئذ فقط ، سوف يدهشنا أن ليس هناك إلا دينا واحدًا ، هــو ديـن العدالة بين البشر ، والحياة الكريمة لكل الناس .

خصخصة الإيمان

شـهدت مصـر فـى الآونـة الأخـيرة تغيـيرات جذريـة فـــى مســـيرتها الاقتصادية ، حيث الانتقال بشكل أكبر وأساسى إلى اقتصاد السوق الحرة. استلزم هـذا التحـول بـالضرورة اتخـاذ «الخصخصـة» مبـدأ ، باعتبارهـا الموجة أو «المايسترو» الذى يقود حركـة النشـاط الاقتصـادى وعلـى يديـه تتجمـع وتلتـف وتتنـاغم خيـوط وأصـوات الفـرق العازفـة علـى «النوتـة» الاقتصادية الجديدة.

كل يوم تطالعنا الإجـراءات والتشـريعات والسياسـات لزيـادة مسـاحة «الخصخصة»، وتوسيع قاعدة الملكية للأفراد والبنوك والشـركات ومرافـق البنية التحتية وغيرها من أعمدة النشاط الاقتصادى.

وتـتزامن مـع هـذا المناشـدة المـتزايدة لتذليـل كـل العقبـــات الإداريـــة والقانونية والمالية والجمركية لتسـهيل مـد الخصخصـة ، وتمكـين القطـاع الخاص من أداء دوره على أكمل وجه.

أدت تلك المتغيرات الجذرية فى حـــال الاقتصـاد المصـرى، إلى سـيادة مناخ يعطى الأهمية والأولوية والتقدير لعبارات المشـــروع الفـردى والمبـادرة الخاصة، والجهد الذاتى، فكر غير تقليدى، وحلول جذرية.

هناك تناقض جوهرى وأساسى بين إقامة الخصخصـة فـى الاقتصـاد، وبين التأميم فى الفكر . فالخصخصة باعتبارها حركـة ديناميكيـة تسـتنفر

الملكات الخاصة والقدرات المتميزة، والرؤية الابداعية الفردية المتفردة، تختنق وتموت فى مناخ فكرى جامد مهيمن، مركز فى اتجاه واحد، ولا يعكس إلا نغمة مستهلكة، الإيقاع والصوت، تجهض الاختلاف، والإبداع فى الفكر والثقافة.

وتمثل العقيدة الدينية، والإيمان بالله، وطريقة النظر إلى دور الدين فى الحياة، أساس تفكير الفرد وهى التى تشكل أحلامه وتحدد علاقته بنفسه، وبالآخرين.

ولذلك فنحن حين نتكلم عن مناخ عام يؤمن بالخصخصة فى الاقتصاد لابد أن نتوقع إيمانا مماثلا موازيا للخصخصة فى الفكر والتى تبدأ منطقيا فى أهم ما يصنع فكر الإنسان ألا وهى العقيدة الدينية وعلاقته بربه.

إن الإيمان بالله مشروع خاص جدا.. ومشروع فردى جدا والعقيدة الدينية هى أكثر الأمور غير القابلة للتخطيط المركزى والوصاية المركزية والرقابة والتحكم، والمتابعة والتقييم وضبط الأداء وهى الوظائف أو المبادئ التى تخدم نوعا من الجماعة وسيادة الهياكل المتشابهة المنمطة.

إن العقيدة الدينية اختيار حر. ولا معنى لها، ولا فضيلة فيها، إلا إذا كانت مشروعا خاصا وكل فرد كذلك الإيمان بالله، يكتسب عظمته من حقيقة أنه أكثر الأمور خصوصية وفردية.

إن توسيع مساحة الملكية الخاصة للأفراد فى الناحية الاقتصادية يستلزم توسيع مساحة ملكيتهم الخاصة لأفكارهم ومشاعرهم ورؤاهم عن أنفسهم وعن العالم.

إن شكل العقيدة الدينية وملامح الإيمان بالله هما (ولابد أن يكونا كذلك) بالمنطق «ملكية خاصة» للفرد، باعتبارهما أساس مكونات الفكر والمشاعر، والرؤية أو فى كلمة واحدة «الشخصية».

كما نحن فى أمس الحاجة الآن إلى فكر إبداعى مقتحم وجرىء فى الإنتاج والثقافة والفنون، نحتاج بالمثل إلى فكر إبداعى مقتحم وجرىء يتناول العقيدة الدينية للفرد وعلاقة الإنسان بربه ودورهما فى الحياة، نقيم من فترة لأخرى مهرجانات وملتقيات للفنون تحت أسماء «ليالى الإبداع» أو «المبدعون يتلقون» ، المبدعون يلتقون، وغيرها والتى تتناول الغناء والرقص.

لكن الإنسان السوى الرشيد قبل أن يغنى أو يرقص عليه أن يبدع فى إشكاليات فكرية أساسية يكون الموقف من الدين، والإيمان بالله حجر الزاوية فيها بالضرورة.

لماذا لا تقام ملتقيات منتظمة تخصص للإبداع فى الفكر الدينى والإبداع فى علاقة الإنسان بربه، والإبداع فى مكانة العقيدة الدينية فى الحياة؟!

وعلى هذه الملتقيات أن تعد وتدار بشكل مبدع أيضا فتضم كل الفئات والطوائف والشرائح والمهن والاتجاهات وليس كما قد يتصور أنها تكون قاصرة على من يتكلم باسم الدين.

كما نزهو بما أنجزناه من إصلاح اقتصادى نحتاج بالمثل إلى إصلاح دينى يؤمن أن الفكر الدينى بكل مفرداته العقائدية والإيمانية ملكية خاصة للفرد هو وحده المسئول عنها.

وما علـى المجتمـع إلا تذليـل كـل العقبـات التـى تعـوق ذلـك وخلـق الضمانات لأن يمتلك كل فرد إيمانه الخاص وأن يمارس علاقته بربه فـى أعلى درجات وأشكال الخصوصية الممكنة.

وهـذا كـاف لأن يحـول دون وجـود ونمـو أشـكال التطـرف الدينـى والوصاية الدينية.

الإرهاب . . والتأرجح بين التزمت والإباحية

لا شك فى أننا نعيش لحظات حرجة من تاريخ مصر.

لحظات تنادى كل قلم مصرى أن يسكب ذروة مصريته على الورق لحظات تستنفر فينا مصريين ومصريات أعز ما نملك وأشرف ما نكون، ألا وهو الرأى الحر الخالص لوجه الله، ولوجه مصر.

وقبل محاولات الفهم والتفسير لما يحدث، علينا فى البداية، أن ندين ما تشهده أرض مصر من حوادث عنف وقتل وتخريب، تقوم بها جماعات سياسية إرهابية، ترتدى عباءة الدين تتكلم باسم الله، فتفرض بسفك الدماء أهواءها ومصالحها، تلك المصالح والأهواء، التى يوافقها ويرسخ من أقدامها العودة إلى عصور لطخت جبين البشرية.

عصور ما زالت فى ذاكرتنا حيث كان الدين سوطا، يضرب عقل الإنسان فى حركته المبدعة نحو التقدم والحرية.

وكثيرا ما تغنينا أن «حب الوطن» فرض علينا، نحن الآن فى وقت نحتاج فيه أكثر من أى وقت مضى، إلى أن نترجم فريضة حب الوطن إلى تساؤلات جريئة، تطرح التردد والتجزئة جانبا، لنواجه الأمور مواجهة مباشرة متكاملة الأبعاد.

إلى أى مدى، نقول: إن ما يحدث هو مؤامرة دخيلة مصدرة إلى مصر، تحركها قوى خارجية، تهدف إلى ضرب الاقتصاد، وتخريب السياحة

وإشاعة جو من الإرهاب، وقبل أى شىء آخر، عرقلة التجربة الديمقراطية المتصاعدة، والعرقلة تعنى فى المقام الأول، وضع تجربتنا الديمقراطية فى مأزق حضارى، يجعلها تتصور - ولو لفترة مؤقتة - أن توفير الحرية وتوفير الأمن، أمران لا تناغم بينهما، ويدعوها للتشكك فى أساسها الجوهرى (والذى تدعمه خبرات الشعوب) ألا وهو، أن البلد الأكثر ديمقراطية، هو البلد الأكثر أمنا.

وإلى أى مدى نقول: إن ما يحدث هو تراكم أو رد فعل لإحباط بعض الشباب، ووصولهم إلى طريق مسدود، حيث غياب الاحتياجات الأساسية فى حدودها الدنيا، تلك الاحتياجات التى تخلق بدورها الحد الأدنى الضرورى للإحساس بالكرامة الإنسانية.

والحديث عن الكرامة فى الوطن، ليس حديثا مترفا كما قد يظن البعض فكرامة الرجل فى وطنه، وكرامة المرأة فى وطنها، هى التى تصنع الانتماء الفعلى كإحساس، ثم يجسد فى سلوك يظهر الخوف على الوطن، والاستعداد لتحمل ما يمر به من مشاكل أو أزمات ولن نبالغ ونقول إن سعادة الإنسان هى الوجه الآخر لإحساسه بكرامته فى وطنه، ولكننا على الأقل، نستبعد السعادة دون دخول الكرامة كأحد مكوناتها الأساسية.

نحن أبعد ما نكون، عن استبعاد قوى خارجية منظمة تتحرك على نطاق العالم بأسره، شبكة محكمة فاسدة، خيوطها هى إحياء الحروب الطائفية والأهلية لترويج الأسلحة وبلبلة الاستقرار، تدعيم وتمويل

حركات إحياء الديانات ولكن فى الأمور القشرية السطحية، استخدام جسد المرأة إما لمخاطبة الإباحية، وإما مخاطبة العصور السلفية، تشجيع بؤر المخدرات، والبغاء ونشر روح العنف والعدوانية، ولأن هذه القوى تملك الأموال والنفوذ وآخر منجزات العلم والتكنولوجيا، فإنها تستثمر هذا كله، فى إخضاع وإضعاف الهوية القومية الأصيلة لكل جماعة على حدة، من خلال تغلغلها فى القنوات الإعلامية والثقافية.

هذه العناصر فى علاقات ارتباط وتداخل ولكن قد يبرز عنصر على حساب عنصر آخر حسب طبيعة وظروف البلد المستهدف.

ولأن مصر كانت ولا تزال نقطة مضيئة فى منطقتها وبين جيرانها، ولأنها ليست استثناء لما يحدث فى العالم، فمن الطبيعى أن تمتد إليها خيوط هذه الشبكة.

لكننا مع اعترافنا بشراسة هذه القوى، نرى أن المسئولية الأكبر، إنما تقع على البنية الداخلية. فهى التى تخلق التربة الخصبة الملائمة لأن تجد الشبكة من يتحمس لها، ويمسك بأحد خيوطها (الأكثر ملاءمة لظروفه) ومن يصدق ما تروجه من إشاعات وأكاذيب ويستجيب لما تقدمه من إغراءات، وما تنشره من عنف يناسب الطاقة الغاضبة التى بداخله، والتى لابد لها من منفذ، إما تجاه الداخل وإما تجاه الخارج.

نحن نشبه هذه القوى الخارجية بالفيروسات الكثيرة المتنوعة التى تملأ الجو المحيط بنا، وتقع خارج أجسامنا، هل إذا دخل أحد

الفيروسات الجسم وتمكن منه، أنلوم الهواء أم نلوم جهاز المناعة الداخلى؟

المنطق يقول: إن مسئولية جهاز المناعة داخل الجسم هو المسئول الأول، فالهواء لن يتغير، والفيروسات ستظل منتشرة فيه، تماما، مثل محاولات ضرب الشعوب التى يتحدد ظهورها أو كمونها حسب درجة مناعة الشعب المستهدف.

والدليل على ذلك: أن جماعات التطرف والإرهاب والإفساد، ظهرت وترعرعت فى البلاد وفى المناطق التى يتضح فيها أكثر من غيرها، مظاهر عدم العدالة الاجتماعية، وغياب الحدود الدنيا للحياة الآدمية الكريمة، تماما، مثل أى مرض عضوى حين يبدأ بأضعف الأماكن فى الجسم، ويركز عليها فأقطاب هذه الشبكة الدولية لهم تاريخ طويل من التدريب والخبرة يؤكد لهم أن النجاح يكون مضمونا أكثر، إذا كان العدو من الداخل وهو درس، أحيانا ما تنساه الشعوب. فبعد استقلال المستعمرات عن الدول الاستعمارية بفعل الثورات وحركات التحرير، اختفى العدو الخارجى الظاهرى والملموس فى شكل احتلال مباشر للأرض، ولأن العلاقة بين الدول الكبرى والصغرى لم تتغير فى جوهرها، وبقيت بعد الاستقلال علاقات تسعى إلى السيطرة والاستغلال أكثر منها إلى التعاون والعدالة، فمن المنطقى ظهور عدو أو مجموعة من الأعداء غير ظاهرية، تقوم بأنواع مستترة من الممارسات التى - فى جوهرها - نسخ معدلة من الفكر الاستعمارى، نسخ أكثر مرونة، وأكثر قدرة على التخفى، والتأقلم مع الظروف المتغيرة، عالميا وداخل كل بلد على حدة.

إنها إذن البنية الداخلية التى لابد لنا أن نواجهـها ونوليـها الاهتمام والأولوية، حتى تكون بحق الدرع الواقية لسلامة الوطن، والصخرة الصلبة التى تتحطم عليها هذه المحاولات الخارجية.

فى مواجهة للبنية الداخلية، قيل وكتب الكثير عن الفقر والبطالة وحصار المشكلة الاقتصادية التى يصاحبها ويزيد من خطورتـها الانفجار السكانى. نحن لا نتجاهل قيمة الخوض فى مشاكل الاقتصاد، لكننا نعتقد أن الدول جميعها بأشكال ودرجات متفاوتة، ستظل تواجه تحديا مستمرا فيما يخص العلاقة بين البشر والموارد، وفيما يتصل بالتوازن المطلوب بين الاستهلاك والإنتاج.

نحن نفضل مناقشة البنية الداخلية للمجتمع المصرى، من منظور الفكر وليس الاقتصاد، أو من منظور ما سنسميه إشكالية الفكر، أكثر منه إشكالية الاقتصاد، ونقصد بإشكالية الفكر، الفلسفة التى اختارتـها مصر لتكون عنوانها فى الحاضر وفى المستقبل. نحن نزعم أن غياب الفلسفة أو عدم استقرارها أو عدم وضوحها أو عدم تغلغلها فى صميم تفكيرنا ومشاعرنا وسلوكنا، لهو من الأسباب الرئيسية التى تصيب مناعة الشعب فى مقتل، وتؤثر فى مدى رخاوة أو صلابة البنية الداخلية، الآن أكثر من أى وقت مضى، لابد أن نتساءل عن هويتنا الفكرية التى تحدد بطاقتنا الحضارية، بها سندخل القرن الواحد والعشرين.

وعلى مستوى العالم، نحن نعيش تناقضا، ونعاصر مفارقة فريدة من نوعها، فلم يحدث قبل هذا العصر أن وصل العالم إلى هذا المستوى من

المعرفة العلمية والاكتشافات والاختراعات فى كل المجالات، ولكنه أيضا لم يحدث قبل هذا العصر، أن وصل إلى هذا المستوى من التعاسة والحماقة والتراجع الأخلاقى.

هناك علاقة عكسية متنامية غير مفسرة وغير مبررة، بين تقدم العالم ماديا، وتأخره إنسانيا، فهو ينتج المزيد من الأساليب المبتكرة، ولكنه يستخدمها لقتل البشر، وتدمير الطبيعة، وكأن الإرهاب بنوعيه سواء ذلك الموجه للناس أو البيئة، هو سمة العصر، وعنوان حضارة نهايات القرن العشرين.

لقد آن الأوان أن تتجمع كل القوى الوطنية العقلانية المستنيرة فى مصر، بكافة اتجاهاتها، وقطاعاتها، وفئاتها ومجالاتها، لترسم لنا عبر حوار ديمقراطى مفتوح، صيغة فكرية واضحة وحاسمة، تأخذ فى الاعتبار أحلام وطموحات الغالبية، صيغة تليق بحضارة هذا الشعب الأصيل، وتلائم خصوصيته التى جعلت من مصر دائما - ورغم ما تعرضت له من أزمات - بلدا رائدا وملهما.

إن التطلع إلى صيغة فكرية نستقر عليها، لا يعنى الجمود والثبات، إن التغير والتعديل والمرونة أمور واردة ومطلوبة. وفى عالم سريع التغير، معقد ومتشابك كعالمنا الراهن، تصبح واردة ومطلوبة أكثر. لكن التغيير يكون من نصيب التفاصيل، والأساليب المستخدمة، والأهداف المرحلية، وليس تغييرا فى المنهج أو الأغراض العامة الكلية، وفى الحقيقة، أن استقرار الفلسفة وثباتها كأساس فكرى للمجتمع، هو الشرط الذى يضمن

التغيير المرن الصحى، به نتفاعل مـع المتغـيرات الجديـدة، دون أن نفقـد «البوصلة» التى توجهنا، ودون أن ترتبك خطانا، أو يتخللنا الشك حـين تصادفنا العراقيل.

نحن على يقين، بأن مصر ثرية بالعقول المبدعة التى يمكنها الاضطلاع بهذا التحدى الفكرى.

أليس هذا اليقين، ما علمته لنا مصر، على مدى عصورها. . .

الإرهاب ومكبرات الصوت

إن التصدى الحازم للإرهاب الذى يقتل الأرواح، ويسفك الدماء، باسم الدين والجهاد فى سبيل الله، هو أمر يقف معه ويؤيده كل الشعب المصرى، على اختلاف اتجاهاته الفكرية، وتباين نظرته لأمور الدين والدنيا.

ونحن نعتقد أن نجاح وفعالية هذا التصدى على المدى الطويل، مرهون بامتداده وتغلغله فى كل نواحى الحياة الفكرية والاجتماعية، والفردية والجماعية. بطبيعة الحال - وبحكم تفرد تكوينها - تبرز أكثر الناحية الأمنية، كتصد لابد أن يؤتى ثماره على المدى القصير، حيث لا مهادنة فى سلامة وأمن الوطن.

إن التصدى للإرهاب يحتاج إلى فلسفة أو نظرية، تحدد معناه، وأبعاده، التى بقليل من التأمل، نجد أنها تشمل بعض الظواهر والممارسات، التى لا يعقبها بالضرورة قتل الأرواح، وسفك الدماء.

لابد أن ننظر إلى الإرهاب، على أنه فى جوهره - كل ممارسة للعنف، واغتصاب حقوق الآخرين، وكل محاولة لفرض سلوكيات بعينها، وذلك تحت أى اسم من الأسماء، خاصة الدين، الذى بطبيعته وبحكم مساره التاريخى، يشكل قضية حساسة لدى قطاعات كبيرة من الناس، وجدير بالذكر، أن هذه الحساسية، تزداد وتصبح أقل عقلانية، ومرونة، وأكثر خشونة وتعصبا فى أوقات الأزمات.

ونحن فى هذا السياق، سنركز على أمر أصبح ظاهرة فى حياتنا الاجتماعية، والذى يمارس باسم الدين، نوعا من العنف، والإرهاب، واغتصاب الحقوق، وفرض السلوكيات، رغم أنه لا يريق نقطة دم واحدة، ولا يطلق القنابل أوالرصاص.

هذه الظاهرة، هى مكبرات الصوت. نحن نتساءل - ومن حقنا أن نتساءل وأن نلقى الجواب - لمن تزعق مكبرات الصوت؟ وكيف باسم الصلاة، أو أداء طقوس الدين، التى تستهدف أن يصبح الناس أكثر إحساسا بالآخرين وأكثر رقة وجمالا، تنتهك مكبرات الصوت، مبادئ الدين التى تضع حرية الإنسان وحقوقه، راية مقدسة ترفرف عاليا؟.

إن الدين، لا يقر بأى حال من الأحوال، انتهاك أحد مساكن الإنسان، بدون استئذان وموافقة صاحبه . لكن مكبرات الصوت، تضرب بهذا المبدأ عرض الحائط، وتنتهك دون استئذان، آذاننا، وأعصابنا، وأوقاتنا، وجدران بيوتنا، فى النهار والليل وأوقات الفجر.

إن مكبرات الصوت لها نفوذ قوى متسلط، يجعلها غير مبالية، بأن تمارس ما حرمه الدين من إزعاج الناس، وتلويث الهواء بالزعيق والشخيط باسم الصلاة. ولا يهمها أن تمارس ما يتناقض شكلا وموضوعا، مع حكمة الصلاة، من توفير مناخ هادئ سمح، يتيح للإنسان التواصل مع ذاته، ومع الآخرين، ومع كل ما فى الكون الكبير، استعدادا للتواصل المتأمل العميق مع الله، ومع كل تجلياته فى الخلق.

إن التصدى للإرهاب الدموى، لابد أن يرتبط بضرورة توعية الناس بجوهر الدين، ومبادئه الحنيفة التى جاءت لإسعاد الإنسان وتحريره،

لا لإتعاسه وقهره. وهذا مرتبط بترشيد الممارسـات الخاطئة التى تحدث باسم الدين، وتتخلل حياتنا من أصغر إلى أكبر تفاصيلها.

ليس هناك فى الإسلام، ما يبيح استخدام مكبرات الصوت، لإتمام صلاة المسلمين والمسلمات، ليس فقط، لأن مكبر الصوت، اختراع حديث ظهر بعد الإسلام، بفترة طويلة. ولكن لأن الإسلام - فى جوهره - تحيز كامل وصريح مع حقوق الفرد وحريته.

إن مكبر الصوت، ممارسة خاطئة غير إسلامية، وغير شرعية، وغير دستورية. ممارسة يتوافر لها كل عناصر العنف وإيذاء الغير. وهى ممارسة يعاقب عليها القانون، وجميع مواثيق حقوق الإنسان. وهى تساعد فى تشويه وجه الإسلام الحقيقى، لأنها تعطى الانطباع أن الصلاة ترادف الزعيق والخشونة وإزعاج خلق الله.

من يريد أن يصلى، ومن يريد أن يقرأ التواشيح، ويلقى الخطب والمواعظ، عليه أن يبدأ بالبداية الصحيحة التى يقرها الدين وليس العكس.

وطوال عصور التاريخ، كان الشعب المصرى، يصلى، وكان دوما حريصا على أداء طقوس دينه وفرائضه. والتدين ولكن فى اعتدال وسماحة ورقة، كان وسيظل سمة من سمات الشعب المصرى.

لكننا لم نعرف من قبل، أن مكبر الصوت، أداة لإتمام شعائر ديننا وإسلامنا، لم نعرف من قبل، أن الزعيق، وسيلة لترغيب الناس فى

الصلاة والدين. ولم نعرف من قبل، التدين الذى يشترط تداخل الأصوات المرتفعة.

ولن ندخل الآن – رغم أنها مسألة خطيرة – فى أن بعض خطباء الجوامع، يزعقون فى مكبرات الصوت بآرائهم الشخصية، التى تناقض مسيرتنا الحضارية. فهم يهاجمون النساء السافرات، العاملات، ويحرضون الشباب على عدم الاختلاط بالفتيات لأنهن فتنة ومفسدة، وفى كلامهم، يركزون على تخويف الشباب من عذاب القبر، ونار جهنم، وعلى تحريم كل استمتاع بالحياة، فالحياة فى نظرهم ليست إلا غرورا ومفسدة تساعد على الانحراف (والانحراف فى رأيهم هو فقط اجتماع الرجل بالمرأة). وبالتالى، فإنهم يدعون الشباب إلى عدم الإقبال على الحياة، واقتصارها فقط على أداء العبادات، والتركيز على ما يرتدونه من زى، وعلى طول اللحية.

علينا أمانة كبيرة، فى إزالة التشوهات الكثيرة التى تغلف فهم الإسلام، وممارسة طقوسه، خاصة فى هذه المرحلة.

قد يقول البعض إن قضية مكبرات الصوت، قضية تافهة أو ثانوية، وإن انتشارها أصبح أقل. ونرد على ذلك بأن ظاهرة مكبرات الصوت لا تنحسر، على العكس تتزايد، وإذا كان الأمر، يتعلق بحقوق الإنسان، وحرمة مسكنه وحياته، فليس هناك قضية ثانوية، تافهة، وأخرى رئيسية مهمة.

وإذا كانت هذه قضايا تافهة، لما احتاجت المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، وبنود القوانين والدساتير وكذلك مبادئ الأديان، أن تنبه إليها،

وتقر عدم المساس بها. كذلك، فإن أى قضية كبيرة، لا تترجم نفسها، إلا من خلال تفاصيل الحياة، التى يعيشها، الناس ويعانون منها فى الواقع الفعلى المتكرر يوميا.

إن ما تفعله بنا مكبرات الصوت، فى أوقات الصلاة باسم الدين، طلقات رصاص تؤذينا وترهبنا، دون أن تريق دماءنا، أو تقتل أرواحنا. لكنها تريق إنسانيتنا، ومشوارنا الحضارى، وتقتل تصورنا عن معنى حقوقنا وواجباتنا، فى الدين والحياة، على حد سواء.

هل لنا أن نحلم بيوم قريب، تكون فيه مصر، بلدا هادئا؟

ولنتساءل أخيرا ماذا كان سيخسر الإسلام، لو لم يخترع الغرب - غير المسلمين - مكبر الصوت؟.

العجز مع النساء
والتستر تحت عباءة الدين

إنها لحقيقة يؤكدها مسار التاريخ عبر فترات متتالية، أن المجتمعات التى وصلت إلى نوع من التحضر الدينى، هى التى فتحت أبواب الحرية للنساء.

إن الخيط المشترك بين منطق الإرهاب، ومنطق قهر المرأة، هو التكلم باسم الله، والتستر تحت عباءة الدين، لإضفاء صفة القدسية على مزاعمه.

وكلما قل نصيب الأفراد والمجتمعات من الوعى والرقى ورسوخ حقوق الإنسان، كلما ازدادت حساسية التكلم باسم الله، وهيمنة الخطاب الدينى المتشدد، وبالتالى تزداد صفة القدسية والهيمنة.

وغنى عن القول، أن هذه الحساسية تزداد فى وقت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، حيث يمثل الدين واحة الخلاص، والتعويض عن واقع لا يحقق الرضاء والإشباع.

ولكن لماذا إضفاء صفة القدسية؟

إن تكفير الناس، وإصدار الأحكام الدينية ضدهم أمر يمكن تفنيده بالعقل المستنير، والحجة المنطقية، بل إنه فى الأصل حق ليس من اختصاص البشر، ولذلك فهو غير ممكن إلا فى ظل قدسية وهمية تعمل

فى ظل تعصب غير قابل للنقاش. وبالمثل فإن قـهر المـرأة أيضـا أمـر غـير طبيعـى، ومبرراتـه متناقضـة، ويمكـن دحضـها بـالعقل واسـتنارة الرؤيـة وحسن النوايا، ولذلك فهو مضطر لارتداء الثوب الدينـى الفضفـاض الـذى يزعم أن هذا القهر هو رأى الدين، وسنة الكون التى أرادهـا الله لخلقه، وبالتالى يكون الاعتراض على قـهر المـرأة، هـو نقـص فـى الديـن، وأرض خصبة لاتهامات الكفر والإباحية وإفساد الكون، ليس الإرهاب هو ترويع النـاس بالقنـابل والمتفجـرات، ولكنـه أيضـا وفـى المقـــام الأول الوصايـــة الدينية، والأخلاقيـة التـى يعلنـها البعـض علينـا، ويتصـورون أن حقـهم النيابة عنا، فى أمور ديننا، ودنيانا.

ولأن النساء هن نصف البشرية الأضعف، والأكثر تهميشا، وبعـدا عـن مواقع التأثير وصنع القرار، ولأن أجسـادهن ارتبطـت تاريخيـا بـالرمز إلى شرف الرجال، فإن الوصاية الدينية والأخلاقية التى تحاصرهن بـالضرورة أشد صرامة.

ليسـت مبالغـة إذا قلنـا أن العلاقـة بـالمرأة، تلخـص وتجسـد العلاقـة بالحياة كلها.

ويدلنا التاريخ على أن القاسم المشترك بين كل الرجال، الذين اتسـموا بميول عدوانية، فاشية، دموية، كان العجز فى إقامة علاقة صحيـة مـع المـرأة.. ولأن المجتمـع الذكـورى يـرادف قيمـة الرجولـة بمـدى النجـــاح والتحقق العاطفى مع المرأة، فإن الفشل مع النسـاء يعنـى للرجـال شـعورا بالنقص والعار. ويدفعـهم هـذا الفشـل إلى درجـات وأشـكال مختلفـة مـن

التزمت الفكرى، والسلوكيات العدوانية تجاه النفس والآخر، وأيضا التعصب ضد جنس النساء عامة.

إن انفتاح الفكر الدينى، وانفتاح العقلية تجاه النساء، يسيران جنبا إلى جنب.

ولذلك فنحن حين نعارض التزمت الذكورى ضد النساء، لا نضمن فقط عدالة توزيع الحقوق الإنسانية بين الجنسين، ولكننا أيضا نضمن للمجتمع كله، عقلانية سمحة مستنيرة، إنها هذه العقلانية التى تصد أية محاولات للتعصب، والتطرف الدينى والفكرى، والذى تكون النساء بالضرورة أولى ضحاياه.

عن الحب

الحب والديمقراطية

دائما ما يتم تناول قضية الديمقراطية فى علاقتها بالتعددية السياسية، والحريات العامة ، وحقوق الإنسان ، لكننا لا نتطرق إلى قضية الديمقراطية ، فى علاقتها بالحب ، أو العاطفة الخاصة بين الرجل والمرأة . بل إن الكثيرين سوف يندهشون من مجرد تصور رابطة ما ، بين الديمقراطية والحب .

لكن حقيقة الأمر ، أن الحب بين الرجل والمرأة باعتباره أكثر أشكال الحب تكثيفا وتحريكا للمشاعر ، هو التربة الخصبة لغرس بذور الديمقراطية .

بمعنى آخر نقول إن القدرات النفسية التى يفجرها الحب بين الرجل والمرأة هى القدرات نفسها التى تستلزمها الديمقراطية .

إن الحب فى جوهره ، طاقة عاطفية ، خرجت من نطاق الذاتية الضيق المحدود ، للانفتاح على ذات أخرى .

فى الحب ، يتعلم الإنسان الدرس الأول فى الديمقراطية ، ألا وهو كيف يتقبل ويحترم (الآخر) ، الذى هو بالضرورة مختلف عنه . فى الحب ، يفاجأ الإنسان ، أنه أصبح منشغلا بكل ما يجعل (الآخر) المختلف عنه ، ينمو ، ويتطور ، ويتفتح ويتألق ويتحرر . أليس فى هذا أجمل تدريب على الديمقراطية ؟

هل الديمقراطية شيء آخر ، إلا هذا التوجه المنفتح نحو كيان غير ذاتي ؟

الحب لا يعرف ، ولا يعترف بالفروق المصطنعة بين البشر . الحب يذيب جميع الفروق ، ويعبر كل الحواجز ، ويحلق بعيدًا فوق كل الاختلافات الطبقية، والعرقية ، والدينية ، والفكرية ، والعمرية ، والجغرافية ، والعنصرية، فالحب يمكن أن يجمع بين امرأة غنية ورجل فقير ، أو بين امرأة ذات ديانة معينة، ورجل من ديانة مختلفة، والحب يمكن أن يلم شمل الشامى على المغربى ، ويربط بين رجل له بشرة بيضاء، وامرأة ذات بشرة سوداء، وبين رجل فى العقد الثالث من العمر، وامرأة تعدت الخمسين ، أو الستين، أهناك ديمقراطية أكثر، وأرقى من هذه التى يجسدها الحب ؟!

وإذا تأملنا الواقع ، نجد أن الفشل فى علاقات الحب يكمن بالتحديد فى افتقاد هذا (التوجه الديمقراطى) المنفتح تجاه الآخر ، فالرجل قد تكون لديه مشاعر جميلة للمرأة ، لكنه (عاجز) عن (رؤيتها) ككيان مستقل ، لها طموحاتها وشخصيتها المختلفة ، والمرأة قد تكون صادقة فى عواطفها تجاه الرجل ، لكنها هى الأخرى (عاجزة) عن (رؤيته) فى إطار يتضمن له النمو والتطور والتحرر .

فمشكلة الحب ليست غياب المشاعر ، أو العواطف ، ولكنها فى غياب (الإحساس الديمقراطى العاشق) . كثيرون يقعون فى الحب كل يوم . لكنه حب مريض (متسلط) وقصص حب (ديكتاتورية) العاطفة .

إن المجتمعات التى تعادى الحب ، أو المجتمعات التى يكون فيها الحب السوى ظاهرة استثنائية، هى نفسها المجتمعات المتسلطة المتفقدة

للديمقراطية، وهى نفسها المجتمعات التى يغزوها العنف ، والاضطرابات النفسية .

إن الحب بين الرجال والنساء هو (الحزب السياسى) الذى يمكنه تعليم الديمقراطية دون خطب، أو مواعظ، أو شعارات .

وليس المجتمع الديمقراطى إلا تحصيل حاصل لمجتمع نساؤه – ورجاله قادرون على الحب المنفتح تجاه الآخر . هذه هى البداية التى يجهلها ، أو يتجاهلها الكثيرون ، وهى البداية المنطقية . لأن الإنسان العاجز عن تقبل (الآخر) الذى يقيم معه علاقة عاطفية خاصة وحميمة ، سيكون أكثر عجزًا عن تقبل (الآخر) الذى لا تغلف العلاقة معه بالخصوصية ، والعاطفة، والعاطفة، يقول المثل الفرنسى (الحب ابن الحرية) ولذلك فإن الرجل المحب العاشق، أو المرأة المحبة العاشقة، هو المواطن الأكثر تأهيلا للمشاركة فى خلق مجتمع حر .. ففى الحب يكتشف الإنسان أنه يحتاج قدرات عديدة للتعبير عن مشاعر الحب، والإفصاح عن احتياجاته العاطفية، وهذا غير ممكن إلا فى ظل مجتمع حر أو على الأقل مجتمع يتجه نحو الحرية .

إن حرية التعبير عن الحب جزء لا يتجزأ من حريات التعبير العامة فى الرأى، والفكر. فالحب (رأى) خاص جدًا، والحب (فكر) ذو خصوصية عاطفية.

بهذا المعنى يصبح (الحب) قضية سياسية من الدرجة الأولى ، وليس مجرد مشاعر رومانسية محصورة بين رجل وامرأة. وهذا ما يجعل أدباء وشعراء الحب الرومانسى على مر التاريخ ، بالضرورة (سياسيين وثوارا) متمردين على كل أشكال القهر والتفرقة بين البشر.

الحب فى عصر العولمة

أصبح الحديث عن العولمة محورًا للكثير من الندوات، والكتب، والملتقيات الفكرية. هناك مَنْ يتناول العولمة من الناحية الاقتصادية، أو السياسية، أو الثقافية.

لكن ماذا عن علاقة العولمة بـ المشاعر الإنسانية التى تربط بين قطبى الكون.. الرجل والمرأة؛ كيف يمكن أن تؤثر العولمة على عاطفة الحب بين الرجل والمرأة؟ والتساؤل عن أثر العولمة على الحب بين الرجال، والنساء، لا يقل أهمية عن التساؤل عن أثرها فى مجال الاقتصاد، أو السياسة، أو الثقافة. ترجع هذه الأهمية ليس فقط لأن التحقق العاطفى يعكس نفسه فى مجال الإنجاز الاقتصادى أو السياسى، أو الثقافى. ولكن أيضا لأن الحب بين الرجل والمرأة، هو قضية اقتصادية وسياسية وثقافية من الدرجة الأولى. فالحب لا يولد فى فراغ، وإنما فى مناخ سياسى واقتصادى وثقافى محدد، له أولوياته، وأحكامه، وقيمه. وبالتالى فإن الحب يأخذ معناه، وتتشكل أبعاده، وآفاقه، وفقا للمناخ السياسى، والاقتصادى، والثقافى السائد.

كيف يكتسب الحب معناه، وتتشكل أبعاده، وآفاقه فى عصرنا الحالى.. عصر العولمة؟.

تشير العولمة إلى تحول العالم بسبب ثورة الاتصالات والتكنولوجيا والمعلومات، إلى قرية واحدة. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وتفكك

الكتلة الاشتراكية، وأخذ هذه البلاد لنمط الحرية الاقتصادية، واقتصاد السوق، أصبح يهيمن على هذه القرية العالمية الصغيرة، التوجه الرأسمالى، ليس فقط كتوجه للنمو الاقتصادى. ولكن أيضا كنمط للحياة، ومنهج للتفكير. وبما إن انهيار الكتلة الاشتراكية، قد أعطى الولايات المتحدة الأمريكية قوة أكثر، ومصداقية أكبر، فى فرض نمطها الرأسمالى، وتغلغله لبقية دول العالم، فإن الحديث عن العولمة، يرادف إلى حد كبير الحديث عن «الأمركة». أى ان أمريكا قد أصبحت رئيسة مجلس إدارة العالم، والمتحدثة الرسمية باسمه اقتصاديا، وسياسيا، وفكريا وهذا مادفع شعوب العالم للأحساس بالتهديد، والخطر على هويتها الفكرية، وخصوصيتها الثقافية، أمام الطوفان الأمريكى للعالم.

والسؤال الذى يهمنا عن أثر العولمة على الحب، هو تساؤل، هل البناء الاجتماعى الحديث لحضارة السوق (أساس العولمة) يمكنه أن يخلق الشخصية القادرة على الحب، سواء للرجل، أو للمرأة؟..

تعنى حضارة السوق، أن الحرية المكفولة من خلال مناخ المنافسة المفتوحة، للطلب والعرض، هى التى تحدد قيمة الشىء، أو السلعة. فالسلعة مهما كانت ذات منفعة، تظل عديمة القيمة، ما لم يُترجم الاحتياج إليها فى شكل قوة شرائية فى السوق، أى فى شكل «استهلاك».

ويمتد هذا المبدأ الاقتصادى الاستهلاكى، إلى سائر العلاقات الاجتماعية، بل إلى قيمة الإنسان نفسه.

فالإنسان يصبح مثل السلعة، مهما تتوافر له من منفعة، وطاقات، وإمكانيات، كلها عديمة القيمة، ما لم يكن هناك «طلب» على هذا الإنسان، يمكن أن يتم مقايضته واستهلاكه فى سوق الشخصية . وإذا تكلمنا عن الحب، أو العاطفة بين الرجل والمرأة، فإنها تصبح فى هذا المناخ الاستهلاكى «سلعة للاستهلاك» هى الأخرى، أو تصبح المرادف للحصول على «صفقة تجارية» عادلة فالمؤهلات الإنسانية، والمكونات الشخصية لكل من الرجل، والمرأة، لها «مواصفات»، و«شهادات جودة»، تماما كما للسلع من مقاييس ومواصفات فنية، وبذلك يخدم «الحب» بين الرجل والمرأة، الروح العامة السائدة، من تحول كل شىء إلى سلعة لها ثمن، وتشبع مجموعة من الاحتياجات المتبادلة.

تغذى حضارة السوق فى الرجل، كيف يكون «جذابا» للمرأة، وتغذى فى المرأة، كيف تكون «جذابة» للرجل. بدون هذه «الجاذبية» تستحيل عملية «الاستهلاك» سواء للسلع، أو العواطف. تتدخل حضارة السوق فى تحديد صفات الجاذبية للرجال، والنساء، وفقا لاحتياجاتها، ولتطورها التاريخى. وبهذا التدخل، هى تحول الرجال، والنساء، إلى قطيع كبير ينطبق عليه ما ينطبق على السلع، وقابلين لتلقى الأوامر دون عنف، أو دون إحساس بأنهم ليسوا أحرارًا. أى أنها تحولهم إلى آلات متوائمة مع الآلة الأكبر، آلة السوق والمقايضة، والاستهلاك.

وبما إن الإنسان يصبح فى عصر العولمة، وحضارة السوق «آلة»، والآلة لا يمكنها أن تحب، فإن الحب فى عصر العولمة غير ممكن. فالحب يفترض إنسانا حرا رجلا كان أو امرأة. والعولمة هى فى جوهرها سلب

لإنسانية الإنسـان وحريتـه، اللـهم إلا حريـة الاسـتهلاك، وحريـة الأداء الكفء، مثل كفاءة الآلات.

حين نقاوم عصر العولمة، وزمن «أمركة» الحياة، فى الاقتصـاد والفكـر والسلوك، لا نقاوم فقط هيمنة وغزو نمط واحد للحيـاة علـى كـل البشـر، ولكننا أيضا نقاوم حضارة «ميكنة» الإنسان، و«تسويق» عواطفه وعلاقاتـه الإنسانية، تلك الحضارة التى تسلب من الإنسان أعـز مـا يكـون، قدرتـه على الحب الناضج السوى.

عن معنى الرجولة

الرجل المستنير مَنْ هو؟

حين تطالب المرأة بحقوق وحريات النساء، وبإلغاء كافة أشكال التفرقة بينهن، وبين الرجال، يبدو الأمر عاديا، ومتوقعا. فهى تدافع عن بنات جنسها، وتمارس، ما يؤكد صدق النظرية - تدعمها حركة التاريخ - والقائلة بأن كل فئة مقهورة، عليها أن تتبنى قضيتها، وتحرر نفسها.

فكما فى الموت، لا أحد يمكنه أن يكون بديلا عن أحد، كذلك فى معركة الحرية الإنسانية، لا أحد يمكنه أن ينوب عن أحد، وهنا تكمن عظمة الحرية، فهى لا تذهب، إلا لمن - فى كبرياء - يدفع ثمنها، ويخوض - دون وجل - معتركها الصعب.

أما حين يطالب الرجل، بحقوق، وحريات النساء، وبالغاء كافة أشكال التفرقة بينهن، وبين الرجال، ويمارس هذا الموقف فى جميع تصرفاته، فالأمر، ليس عاديا، وليس متوقعا، أكثر من ذلك، قد يعتبره البعض، موقفا، ضد «الرجولة».

هذا الرجل، الذى يخذل المعتاد، والمتوقع، هو رجل «مستنير» سوى النفس، والعقل، والوجدان.

إن ندرة الرجل المستنير، لا شك، أنها تساعد فى ترسيخ دونية، وتبعية المرأة، والمؤسف، أن عددًا لا بأس به، من النساء، يكرسن هذا

الوضع، باستسلامهن، وطاعتهن، واستعذابهن، سلطة الرجال، بسبب عدم الوعى، أو الوعى الزائف.

نحن لا نبالغ، إذا قلنا أن، دور الرجل المستنير، فى مجتمعاتنا، بشكل خاص، قد يكون أشد تأثيرًا. من دور المرأة المستنيرة، وذلك لأسباب ثلاثة رئيسية، وإن كانت كلها، راجعة، إلى أصل واحد، ألا وهو سيادة الرجل.

أولها: أن الفكر الذكورى، معتاد على احترام منطق الرجل، والإصغاء إليه، بجدية أكثر من احترامه، واصغائه لمنطق المرأة. حتى لو كان، يضرب فى الجذور التى أقامت هذا الفكر، وأرست دعائمه.

وثانيهما: ونظرا، لأن الحريات المسموحة للرجل فى النقد، والتعبير، والحركة، أكبر، فإن فكرة المستنير، يجد - بالتالى منافذ أوسع، وقنوات أرحب، للتداول واثبات الحجة، عن تلك المتاحة للمرأة المستنيرة.

ثالثا: ولأن العلاقة السائدة بين الجنسين، تأخذ فيها المرأة مكان التابع، لفكر، ورأى، ومنطق، ومصالح الرجل، فإن وجود، رجل مستنير، معناه، تبعية المرأة، لفكر، ورأى، ومنطق، ومصالح العقل المستنير.

نحن بالطبع، لا نؤيد تبعية المرأة، سواء فى حالة الرجل المستنير، أو غير المستنير، لكننا، نشير إلى أهمية، وخطورة، استنارة الرجل، فى مجتمعات، تمثل فيها، طاعة النساء للرجال، المرتكز الأساسى، وعنوان الفضيلة الكبرى بالنسبة للنساء.

إن استنارة الرجل، تبدأ، بأن يعى، أن دفاعه عن حقوق وحريات المرأة، هو دفاع عن حقوقه، وحرياته هو أيضا، هو يدرك، أن فى العلاقة غير المتكافئة، يفقد كلا من «الأعلى» و«الأدنى» حريته، وإنسانيته.

وهو يستطيع أن يفضح الزيف، والتضليل، فى كلمات مثل، الجنس الأقوى - أو الأعلى - والجنس الأضعف - أو الأدنى، فالأقوى، أو الأعلى، لا يستبيح، ولا يبرر، الظلم الواقع على الطرف الآخر، تحت أى مسمى مضلل مثل الطبيعة، أو العرف، أو التقاليد الموروثة.

الرجل المستنير، يفكر فى الحرية، دون تجزئة، ودون ازدواجية المقاييس. حرية الوطن، لديه، حرية كل البشر. هو لا يضع سلم أولويات، فلا يقول أن حرية الأرض، أهم من حرية الناس. أو أن نحرر هذه الفئة أولا، ثم يأتى تحرير الفئات الأخرى، فى مرحلة لاحقة. هو لا يفصل بين أن يحتل عدو خارجى، أرض الوطن، وبين أن يقع الناس، تحت احتلال العادات، والأفكار البالية، الرجل المستنير، يرى - وهذه حقيقة - أن الانتصار على عدو خارجى، أسهل من الانتصار على التقاليد المتعصبة الموروثة، بل إنه، يرى، صعوبة اقتحام عدو خارجى، طالما أن الجبهة الداخلية صلبة. والصلابة، لها طريق واحد، هو سيادة المساواة، والعدالة، بين كل الناس دون تمييز.

الرجل المستنير، بالتالى، لا يملك إلا أن يندهش، حين يذكر أصحاب دعوات الحرية، كلمات، مثل «العدالة الاجتماعية» قاصدين بها، مجال الصراع بين الفقراء الذكور، والأغنياء الذكور. أما جبهة التضامن، الجامعة بين الفقراء الذكور، مع الأغنياء الذكور، ضد فقراء النساء، وأغنياء

النساء، مستبعدة تماما. ويندهش أيضا، حين يتكلم الجميع، عن «الديمقراطية» فى المجتمع، ولا أحد، يتكلم عن «الديمقراطية» بين الجنسين، فى البيت، فى الأسرة التى تعتبر نواة المجتمع الأولى إذا سلمت، سلم المجتمع الكبير بأسره.

الرجل المستنير، فى محاولة دائمة لفهم، لماذا لا يرضى الرجال، باستكانة أوطانهم، ويرضون باستكانة نسائهم، ولماذا فى نضالهم عبر التاريخ، يهبون لكسر سلطة الحكام وهم أنفسهم يمارسون، ويبررون سلطاتهم على النساء؟ ولماذا، تمنح كلمة «لا» الشرف، والزهو، للرجل الذى يقولها، فى مواجهة، حاكم ظالم، بينما هى سبب، للتأنيب واللوم، والاتهام، إذا قالتها امرأة، فى مواجهة رجل ظالم؟؟.

الرجل المستنير، يرى أن التحدى الحقيقى، ليس فى الوقوف ضد الفروق الطبقية، (التى يتحدث عنها الجميع حتى فى أشد المجتمعات طبقية). لكنه فى الربط العضوى الدائم، بين التحيز الطبقى ضد الفقراء، والتحيز الذكورى ضد النساء. التحدى الحقيقى، هو الدخول بعمق، فيما لا يزال يعتبر من المحظورات الفكرية ولا يزال، غير مفهوم، ومثيرًا لحفظية كثيرين، ألا وهو، كسر سلطة الرجال على جميع المستويات، وفى كافة نواحى الحياة.

إن مقياس التقدم الحقيقى، عند الرجل المستنير، ليس فى انتشار الأجهزة، والتقنيات العلمية المعقدة، وليس فى إدارة حياة البشر، بالأزرار. إن التقدم الحقيقى، لهو فى الفكر، الذى يشغل الأجهزة، وفى العقلية، التى تحرك الأزرار.

ليس الرجل المتقدم، هو من يستطيع اخضاع «أحدث» المكتشافات، ولكنه الرجل، الذى يستطيع إخضاع «أقدم» نزعات التملك، والعنصرية، والسيطرة على الأرض، والنفوذ، والناس، ليس الرجل المتقدم، هو من يستطيع، التعامل، مع جهاز كمبيوتر، ولكنه الرجل، الذى يستطيع التعامل، مع امرأة ند له، أو أكثر تفوقا منه، دون حساسية، أو عقد، أو شعور، أن «رجولته» قد خدشت.

الرجل المستنير، هو بالضرورة، متمرد على مفاهيم الرجولة، التى ترى أن الرجل، رجل، بقدر ما يتميز عن المرأة، وبقدر، ما يكون وصيا، ورقيبا على أخلاقها، وسلوكها، ومسار حياتها. هو يرفض، أن يكون إحكام القبضة على النساء، هو المرجع الأكبر والوحيد، لمعنى «الرجولة». فى حين، أن رجولته، لا تحرك ساكنا، فى مواجهة، الظلم الاجتماعى، أو التفسيرات الخاطئة للدين، أو انتهاك الفن، أو اغتصاب البيئة.

الرجل المستنير، يرى الرجولة، عونا للمرأة على التفتح، والتفوق، والانطلاق. هو رجل، ليس بقدر ما يخلق من ممنوعات، ومحظورات، ولكن بقدر ما يفتح من النوافذ المغلقة، هو رجل، بقدر ما يستطيع تحمل امرأة، لا تتبعه، ولا تطيعه.

الرجل المستنير، يدرك، أن علاقته بامرأة خاضعة، مسلوبة الفكر والإرادة، أمر لا يشرفه، ولا يميزه. لكن ما يميزه، وما يشرفه، هو علاقته بامرأة حرة، تستطيع أن تضيف إليه، بفكرها الواعى، وشخصيتها المستقلة. امرأة تحافظ على إنسانيته، بالوقوف ضده، إذا حاول فرض سيطرته. المرأة الحرة، ليست إذن ضد مصلحة الرجل، كما يظن البعض. المرأة الحرة، شرط لارتقاء، وتوازن الرجل، وشرط، لارتقاء وتوازن الحياة.

الرجولة ليست قرصا!

ما أروعه من عالم نعيش فيه.

لا أزمة تستعصى عليه، ولا مشكلة تهزمه..

نصحو كل صباح، فتفاجئنا حلول سحرية اخترعها العالم ونحن نيام، ولابد أن نحس بالامتنان، ونقدم فروض الطاعة والولاء، العـالم يتيح لنا الراحة، والنوم، بينما هو ساهر علـى مشكلاتنا، وأزماتنا، لا يغفل لـه جفن أو عين

أصبحنا أكثر من أى وقت مضى، نعيش فى عالم يزدهـر، ويربـح مـن بيع بضاعة فاسدة، هى، الزيف والكذب، والأوهام.

عالم يقتل البشر، يحتل الأرض، يمتص الخيرات، باسم «الشرعية الدوليـة» أو «تـأمين الحـدود»، أو «الجـهاد».. عـالم يلغـى خصوصيـة الشعوب، يمسح هوية الأفراد، باسم «العولمة» أو «الكونية».

عـالم يقسـمنا، يفرقنـا، يبـث فينـا بـذور العـداء، والكراهيـة، تحـت مسميات عقائدية، أو جغرافية أو طبقية أو جنسية، أو عرقية.

ليس مستغربا إذن، أن يقتحم هـذا العـالم بيوتنـا ، يتسـلل إلى فـراش نومنـا، يتجسـس علـى أجسـادنا، يراقب أخـص اللحظـات، وأكثرهـا حميميـة.هكـذا نصحـو مـن نومنـا هـذه الأيـام، لنجـد الحـل السـحرى لما يسمونه العجز الجنسى عند الرجال.

قرص واحد، يزف البشرى للرجال لحل مشاكلهم النفسية والجنسية مع النساء..

أن يمتد الزيف إلى إحساس الجسد، وانتشاء الروح، فهذا جزء ضرورى من المؤامرة، التى تستهدف خلق إنسان بلا إنسانية، رجل يفتعل الرجولة، بقرص يبتلعه، كما يبتلع الزحام، والضجة، والقلق، وامرأة تستغنى عن التوافق العاطفى بمفعول كيميائى صنعه قرص.

رجل لا ينظر إلى المرأة، أكثر من فنجان قهوة فورية، أو وجبة «يخطفها ويجرى» وامرأة لا تريد من الرجل إلا كفاءة ميكانيكية.

ياله من منطق مخادع، مضلل.

كيف تصل الحماقة برجل، فيعتقد أن أزمة المشاعر، والتواصل، متعددة الألوان بينه وبين المرأة، يمكن اختصارها إلى حبة زرقاء، أو خضراء؟.

وكيف تصل السذاجة بامرأة، فتصدق أن ما فشلت فيه كإنسانة وأنثى، فى علاقة لا لون لها، سينجح فيه قرص ملون؟.

إن التوافق النفسى، العاطفى بين الرجل والمرأة، شبكة معقدة تتداخل فيها الظروف الشخصية والعوامل الاجتماعية التى تتفاعل، وتتجدد، مع مرور الزمن وتغير العلاقة ذاتها، وتغير طرفيها..

إن الرجل الذى يعجز عن الانتصاب الجسدى، هو فى الأساس عاجز عن الانتصاب العاطفى، هكذا الحال مع النمط السوى من الرجال.

إن الرجـل السـوى، هـو الـذى استطاع عبـور الهـوة بـين عاطفتـه، وجسده، وعقله، وأصبح يتصرف بكيان واحد متسق الأجزاء، رجل تحرر من إلحاح الغرائز البدائية، ذات التوتر الحيوانى المؤقت، رجـل لا يـرى الجنس تنفيسا عن القهر، أو العنف الكامن ولا يتخذه استعراضا وفحولـة عضلية، تثيرها صور النساء العاريات، والنكات البذيئة مع رجال مكبوتى الكرامة والأحلام.

الرجل السوى يرى الجنس، أكمل تعبير عن التناغم بينه وبين امرأة، يشتهيها بالعقل، والعاطفة، والجسد . امرأة لا تقل عنه حرية، وإنسانية وسواء.

ويدخل مع هذا التناغم بينه وبين المرأة ، تناغم علـى مستوى آخـر، بينه وبين الكون.

إن «الاشتهاء»، وعى مركب، ورغبة متكاملة، وهو مختلـط بالحيـاة، يؤثر فيها، ويتأثر بها، وحين يأخذ التعبـير بالجسـد شـكلا مكمـلا لـه، يكون للأسوياء من الرجـال، والنسـاء، ثمـرة طبيعيـة للاشـتهاء النفسـى، والعقلى..

من هذا المنطلق، يكون عجز الرجل السوى عن الانتصـاب «العضـوى» دلالة على الصدق، والصحـة، والتكـامل، إن جسـده رفـض التـورط فيمـا يعتبره مجرد استجابـة بدنية، جزئيـة ، خاليـة مـن الشـرط الإنسـانى، ألا وهو التورط العاطفى، أو ما نسميه مجازا رغبة «الروح».

لست من أنصار الفصل التعسفى بين ما يسمى «الروح»، وما يسمى «الجسد» إن «الروح» والجسد، شىء واحد، أو لنقل إنهما فى عناق أو امتزاج، يصعب معه التجزئة..

لكننا نعيش فى عالم يفرض علينا الفصل بين الجسد، والروح، وتتعاون كل الأجهزة والمؤسسات والقيم الموروثة، فى خلق الإنسان المجزأ، المنقسم على ذاته، المتناقض فى رغباته ومشاعره، وأخلاقه، والمتخبط فى معاييره وأحكامه..

إن هذا العالم القائم على التفرقة بين الجنسين وبين البشر، وبين الدول.. عالم قلة تمتلك المال، والسلطة، والنفوذ، والمعرفة، مقابل أغلبية لا تملك شيئا، عالم تسيره علاقات بين طرف أعلى وطرف أدنى... عالم الإنسان المتصارع مع أجزائه، هو بالضرورة عالم بائس. عدوانى السلوك، عالم فى تناقض جوهرى، وعداء أصيل مع العدالة، والمساواة، والحرية.

بدون عدالة، بدون مساواة، بدون حرية، يستحيل الحب الحقيقى الإنسانى، وتستحيل كنتيجة منطقية السعادة الجنسية.

هناك «صفقات» عاطفية، هناك «تبادل» منفعى لأدوار، واحتياجات محددة، ومبرمجة سلفا، وهناك «نجاح» جنسى بين أجساد مغتربة، هذه الأجساد المغتربة، لا تجد هويتها أو رضاها إلا فى لذة وهمية، مؤقتة، مغتربة هى الأخرى بالضرورة، والمفارقة المحزنة، إنها كلها حققت هذا النجاح (صفة الآلات)، كلما ازدادت اغترابا..

إن «أقراص» علاج العجز الجنسى عند الرجال، أو نصائح الزواج السعيد، او كتب التكنيك الجنسى « المثالى»، وغيرها من قبيل هذه الأمور أوهام، تساعد العالم على حل الأزمات التى صنعها وخلقها..

إنها أوهام تبيع للناس إمكانية مستحيلة، أن يحدث الحب الحقيقى فى عالم ضد الحب، وأن تحدث السعادة الجنسية فى عالم لا يهمه سعادة البشر، بل أن سعادة البشر تهدد بنيانه، وتعتبرها خطرا على وجوده..

وفى الوقت نفسه، تعمل هذه الأوهام، على ترسيخ مفاهيم «تشيؤ» الإنسان.

قد يأتى «النجاح» أو «الإشباع» باتباع إرشادات مكتوبة، وقد تهدأ التوترات العضلية بابتلاع أقراص ملونة . لكن «السعادة»، لا تأتى إلا نتيجة للحب الحقيقى، وامتدادًا «طبيعيًا» لعلاقة متوافقة منسجمة، فى عالم متوافق، منسجم.

وفى عالمنا المعاصر، حيث السوق الكبير لتسويق السلع والبشر، والأحاسيس، فإن الحب الحقيقى هو استثناء، ويكون الرجل السوى استثناء وكذلك المرأة السوية..

الرجل الحر يحتاج امرأة حرة

ترى من أيــن تبـدأ حريـة الرجـل؟ متـى يكـون للرجـال حقوق علـى مجتمعاتهم؟ وما هى «توليفة» هذه الحقوق والحريات؟ وهـل هـى ثابتـة، أم متغيرة لتسع امتداد عمر الرجال؟.

لا نعتقد أن أحدًا يمكنه المجادلة، حـين نقـول إن أول الحقـوق وأولى الحريات، تبدأ مع الطفولة، التى تشهد بدايات وعى الطفل الولد بالعالم الخارجى، منذ لحظة انفصاله عن رحم الأم، أو كما يسميها علماء النفس «صدمـة الميـلاد». فـى هـذه المرحلـة، تتحـدد الملامح الأساسـية لرجـل المستقبل.

تتشكل فــى الطفولـة، نظـرة الولـد إلى معنـى وحـدود السـلطة، أو إلى «عالم الكبار». يجسده فى البيت الأب والأم. وفى المدرسة يجسده الناظر والمدرس. وهى مسألة هامة. حيث أن العلاقة بـ «الكبار»، تمس – فـى جوهرها – مساحة الحرية الممارسة، والتشكل اللا واعـى لمعنـى «الأنـا»، و«الآخر».

يبدأ حق الطفل الولد فى أن يفلـت مـن سـلطة الكبـار الذيـن يملكـون الغذاء والحماية والفلوس والقرار. بينما هو ضعيف لا حول له ولا قوة. هذا سيعفى الولد من الكذب والالتواء، لينال ما يريده دون عقاب.

من حـق الولـد فـى طفولتـه أن يلعـب، ويتسـاءل، ويكتشـف هوايتـه المحببة ويمارسها.. من حقه أن يتخيل دون خوف.. مـن حقـه أن ينقد الكبار.. من حقه ألا نسخر من محدودية إدراكه. من حـق الطفل الولـد، أن يختلط بالأطفال البنات، دون أن يشعر بالذنب أو الخطيئة.

فإذا ما كبر هذا الولد، ودخل مرحلة المراهقة، اتسـعت دائـرة حقوقـه وحرياته التى لابد أن يكفلـها لـه المجتمـع الصغـير والكبـير. فـهو علـى أعتاب الرجولة، وتقلقه تساؤلات حول استقلاله وتفـرده، توتـره العلاقـة بالجنس الآخر. و«عالم الكبـار» أصبـح الآن الحيـاة العريضـة التـى يريـد وضع بصمته عليها.

لابد أن نضمن له حرية الخطأ والتجربة وكل مساحة حركة يثبت من خلالها أنه «موجود» و«مؤثر» سواء بالرأى أو الفعل، أو حتـى بـالصمت وعدم الفعل إذا كان هذا اختياره. وفى مرحلة الجامعة ثم الوظيفة، حقـه أن يتكفل المجتمع بتوفير التعليم الذى يلائم اتجاهاتـه وقدراتـه. وكذلـك بتوفير العمل الذى يحقق ذاته فيه، كإنسان مبدع، مفكر، يستطيع إثـراء حياته الخاصة، وحياة مجتمعه.

ثم يريد هذا الرجل أن يتوج دائرة الحقوق والحريات التى ضمنـها لـه المجتمع منذ الطفولة. يريد الرجل أن يكمل «نصف دينه». يتلفت رجلنا حوله، يبحث عن المرأة التى يمكـن معـها أن يخفـق القلـب، ويمكـن أن تكون مسئولية الأسرة متعة وإضافة وليست شرًا لابد منه.

يبحث رجلنا بين النساء، ترى من تعجبه وتثير فضوله؟.

الرجل حقا فى مشكلة، وبحثه لن يكون سهلاً.

لقد كفل له المجتمع منذ «صدمة الميلاد» وحتى «تحقيق الذات»، مسيرة حقوق وحريات قائمة على حرية اللعب، والنقد والفعل والسؤال. وليس هناك أى سبب يدعونا لافتراض، أن هذا الرجل حين يفكر فى المرأة، لن يبحث عن واحدة تربت على الحقوق والحريات نفسها.

إذا كان رجلنا سويا نفسيًا - ولابد أن يكون لأن الصحة النفسية هى نتاج طبيعى للحرية - فإنه لن يرضى ولن يقنع، أو كما يقال لن «تملى عينه»، إلا امرأة لها مقومات شخصيته، هذا هو المنطق البسيط، ومع بساطته لا يحدث. فالمجتمع نفسه الذى حرص على خلق الرجل الحر المتمتع بكافة حقوقه، نسى أن يضمنها للنصف الآخر. وبالتالى نكون أمام هذه الصورة السائدة والغالبة:

هو: تربى على الحرية.

هى: تربت على القهر.

هو: تربى على نقد الكبار.

هى: تربت على حاضر ونعم.

هو: تربى على الاختلاط مع البنات.

هى: تربت على أن الرجال ذئاب وشياطين.. ولكن المفارقة أنها تربت أن تخضع لهم، أو أن الرجل هو «الحل» الأمثل لحياتها.

هو: تربى على أهمية التفكير والعقل.

هى: تربت على أهمية تجميل الوجه والجسد.

هو: تربى على خوض التجارب.

هي: تربت على التراجع والانسحاب..

هو: تربى على أنه سبب للفخر..

هي: تربت على أنها «عورة»..

هو: تربى على أنها جزء من عالمه..

هي: تربت على أنه كل عالمها..

هذه الصورة، لا تعمل فقط ضد سعادة الرجل واستمتاعه بالحياة، وتعوق دون الصحة النفسية، لكنها أيضا، تسحب منه مزايا الحريات، ومعنى الحقوق التى كفلها له المجتمع منذ طفولته، ورعاها حتى أصبح رجلا مكتملاً.

فهو يريد امراة مسئولة عن نفسها، كما هو مسئول عن نفسه، يريد من تستطيع أن تشاركه متعة الشمس والهواء فى التأمل وممارسة الرياضة. يريد من تستطيع أن تعترض إذا أخطأ، ومن إذا ضعف، تستطيع إذكاء إرادته، يريد من تناقشه بالعقل والحجة فى أمورها، وأمور مجتمعها وأمور العالم. يريد امرأة مثله، لعبت وتخيلت ومارست هوايتها حينما كانت طفلة، فتستطيع الآن تذوق الفن معه، يريد امرأة بينه وبينها لغة مشتركة، بدون كل هذا تصبح المرأة عبئًا نفسيًا وماديًا على الرجل.

الوضع الطبيعي والمنطقى والسوى نفسيًا، أن يطالب هذا الرجل (الذى تابعنا مسيرته) المجتمع بالبقية، التى تكون مسك ختام حقوقه وحرياته، ألا وهى حقه فى امرأة حرة، كجزء عضوى من حقوق «المواطنة».

عن المــرأة

الجميع يفضلونها خاضعة

رجل تفوح منه رائحة العرق، أو رجل تفوح منه أرقى العطور.. رجل عالى المقام، أو رجل صعلوك.. رجل على باب الله، أو رجل مشهور.. رجل يحب رابطات العنق المستوردة، أو رجل «اسبور».. رجل وسيم ورشيق، أو رجل خاصمته الوسامة والرشاقة.. رجل إلى كل الأجواء يسافر، أو رجل كامن فى عقر داره.. رجل يعشق الكونشرتو والسيمفونية، أو رجل يعشق الموسيقى العربية، رجل يقرأ الكتب، أو رجل يقرأ صفحة الوفيات.. رجل موهوب، أو رجل معدوم الموهبة.. رجل يحب السجائر، أو رجل ضد التدخين.. رجل متخم بالخبرات، أو رجل نحيل التجربة.

عيون زرقاء، أو سوداء، أو عيون بلون العسل.

رجل بداية القرن العشرين، أو رجل نهايات القرن العشرين.. يتعدد الرجال، والقلب واحد.. كل الرجال، رجل واحد.. الجميع يفضلونها خاضعة.

الرجل المحب والمرأة الحرة أمران لا يجتمعان.

وكلما زاد نصيب المرأة من الحرية كلما أسرعت خطوات الرجل فى الهروب منها، وكأنها «فيروس» خطير.

إن العجز الحقيقى للرجل ليس فى نقصان القدرة الجنسية، ولكن فى عدم القدرة على حب امرأة حرة التفكير، والإرادة والمصير، وفى العجز عن إقامة علاقة مع امرأة ند له، أو تفوقه.

إنه عجز لا تنفع معه أقراص كتلك التى تعالج العجز الجنسى.

إنه عجز تتوارثه الأجيال المتعاقبة من الرجال، حتى اكتسب سمة «الجينات» وأصبح مرادفا لمعنى «الرجولة» فالرجل الحق هو الذى يرى المرأة الحرة «زائدة» وجودية من الواجب استئصالها و «الرجولة» الكاملة هى النفور من النساء الأحرار، والتنديد بهن، ومحاصرتهن بالشكوك والاتهامات.

قد يحدث فى بعض الأحيان أن تتحرك مشاعر الرجل لامرأة لا تخضع له فى الفلوس أو الرأى، لكنه حين يقرر أن يكمل نصف دينه يذهب إلى امرأة له عليها الكلمة العليا سواء فى الفلوس أو الرأى، ويستحسن بالطبع خضوعها فى الاثنين.

لا يستطيع الرجل أن يتصور كيف يكمل نصف دينه مع امرأة غير قابلة للطاعة، أو كيف يواجه على الملأ مجتمع الرجال بامرأة ضد مجتمع الرجال.

إن تعريف الزواج للرجل هو كيف يعثر على امرأة «مريحة» لا تثير تساؤلات أو مشاكل، امرأة مغمضة العينين، ومغمضة الكرامة، ومغمضة الوعى، ومغمضة الجسد.

أما المرأة الحرة التى تعول نفسها، وتعول كرامتها، فهى «وجع دماغ» يزيد الحياة تعقيدا وصخبا، لا داعى لهما.

وإذا ألحت مشاعر الرجل وطالبت بالمرأة الحرة، فإنه يساومها إما هو أو حريتها، ويشترط عليها، إما أن تكون له أو أن تكون لحريتها.

قد يغفر الرجل للمرأة الخيانة، والذهاب إلى رجل آخر (الطامة الكبرى فى عرف الأخلاق الذكورية)، لكنه لا يغفر لها الذهاب إلى مخدع «الحرية» فالحرية هى «العشيق» الذى لا يحتمله الرجال، وهى الخطيئة غير القابلة للغفران.

إذا اختارت المرأة أن تمد يدها وتقطف تلك الثمرة المحرمة التى اسمها «الحرية» فما عليها إلا أن تدفع راضية الثمن، وتعيش فى استغناء عن الرجل المحب.

يعود جزء كبير من بقاء وضع المرأة دون تغير كيفى، أو ما نشهده من انتكاسات متكررة، إلى تراجع من يسمين أنفسهن نساء أحرارا، أو المحسوبات على ذمة الحرية، عن دفع ثمن الحرية عند أول فرصة يظهر فيها الرجل فإنهن يقبلن دخول المزاد والمساومة وينتهى بهن الأمر إلى الخضوع لشروطه فى الحب أو فى الزواج.

والغريب أنهن يزددن إصرارا على أنهن حرات ورائدات على درب التحرر، ولا يتوقفن عن إسداء النصائح لغيرهن من النساء.

والأكثر غرابة أنهن يبدأن فى معاداة النساء الصامدات والهجوم على أفكارهن وتصرفاتهن ووصفهن بالتطرف أو الشذوذ أو الفهم الخاطئ للحرية ومعطيات الواقع.

وبذلك تتشكل «جبهة تضامن» من الرجال مع مدعيات الحرية من النساء، ضد كل امرأة لا تتنازل عن حريتها مقابل «رجل».

المرأة الحرة والرجل المحب نار وماء لا سبيل إلى التقائهما.

استثناء هى المرأة التى تدفع فى كبرياء وشموخ ضريبة الحرية، وتتحمل البقاء نارا متأججة.

استثناء هى المرأة التى تكمل نصف دينها مع الحرية وتظل منتجة عاملة مبدعة متألقة ومتفلسفة.

إنها لبطولة صامتة أن تسبح المرأة المكتفية بحريتها ضد التيار دون أن تتشكك فى قواها على المقاومة والوصول شامخة إلى شاطئ التفرد.

ماذا يفيد المرأة لو كسبت حب العالم وخسرت نفسها؟

ماذا ينفع المرأة لو ربحت «رجلا» يموت وخسرت الحرية، أبدا لها الدوام والخلود؟

الحرية هى الفضيلة

ينقسم الناس بشأن قضية المرأة إلى تيارين. التيار الأول يتهم أصحاب القضية من النساء والرجال بأنهم لا يقيمون اعتبارا للعادات والتقاليد والأخلاق، والأديان. التيار الثانى، بدوره يأخذ موقف الدفاع عن أفكاره، ونواياه الحسنة التى تهدف إلى تحرير النساء دون المساس بالعادات والتقاليد والأخلاق والأديان.

المثير للدهشة أن هذا النقاش، لا يثار عند الحديث عن تحرير فئات، أو قطاعات أخرى غير النساء، أو عند الحديث عن تحرير الشعوب والأوطان بصفة عامة.

قد يثير تحرير الوطن، جدلا سياسيا، أو اقتصاديا، أو ثقافيا، لكنه لا يثير الجدل الأخلاقى الذى يقترن فقط بشكل جوهرى، بقضية تحرير المرأة.

نحن لا ندرى سبب هذه الحساسية المفرطة تجاه العادات والتقاليد، وهذا القلق المتضخم، والخوف الشديد المزمن على الأخلاق والأديان، حين يقترن حديث الحرية بالنساء ؟

نتساءل، لماذا لا يرى البعض حرية المرأة، إلا مرادفة للانحلال، والإباحية، وإثارة الفوضى؟

لماذا قدر على المرأة، أن تكون الكائن الوحيد، الذى تـرادف حقوقه، وحرياته، معنى مخالفة الشرائع والتحالف مع الشيطان؟

إن التخوفات الأخلاقية المثارة، لابد أن تجعلنا نتسـاءل، ما العلاقة بين طموح المرأة إلى الحرية والمساواة، وضياع الأخـلاق؟ ما علاقة تصور عالم جديد يضمن للنساء الكرامة والعدل، بمخالفة الشرائع؟

جاءت كل الشرائع، لكى تساعد الإنسان على المزيد من الحق والخـير والجمال. والناس تؤمن بالشرائع، وتتحمس للدفـاع عنـها، لأنـها تحقق لهم الحرية والسعادة.

إن ذروة الفضيلة، أو قمة الأخلاق أو التدين، يكون هى بلوغ الإنســان لحرياته، ورفضه الدائم لكل أشكال القهر والظلم.

وكذلك، فإن العادات والتقاليد ليست سجنا للإنسـان الـذى صنعـها، وهى ليست كلمة نهائية فى قاموس الحياة دائمـة التغير. لابـد أن يظـل الباب مفتوحا دائما لخلق عـادات وتقـاليد جديـدة، أقـدر علـى مخاطبـة طاقات الإنسان، واحتياجاته المتجددة.

إن أصحاب الجمود والتزمت يروجون دائمـا، أن العـادات والتقـاليد، هى بمثابة القوانين الطبيعية، التى لا تقبل النقاش، أو التغيير.

والحياة دائما تكذب هـذا المنطـق، فـهى تـأتى علـى مـدى عصورهـا، وتقاليد تعكس ظروف واحتياجات كل عصر.

إن الارتباط العضوى دائم التكرار، بين تحرير المرأة، من جهة والخوف على الأخلاق والدين والعادات، والتقاليد من جهة أخرى، يعنى عدة أمور:

أولاً : هو يعنى أن المرأة فى نظر البعض، ليست إلا الكائن القاصر، العاجز عن تمييز السلوك القويم. وأنها الكائن المدنس الذى تحركه غرائزه دون ضابط. وأنها كائن عابث، إذا ترك لحال سبيله، فسوف ينشر الفسق، والشرور، والفتن. وبالتالى هى كائن خطر، لأنها تلهى الرجال عن ممارسة الفضيلة.

أحقا المرأة بهذه القوة، والرجال بهذا الضعف؟

وثانيًا : يعنى أن السياق الرئيسى الذى تتحرك فيه، أخلاقنا وتقاليدنا، هو فقط أو بشكل أساسى، السياق الغرائزى.

وثالثا : هو موقف يدل على عدم الفهم الكافى لقضية المرأة. حيث يرجع جزء كبير من عوائق التمرد، إلى بعض العادات والتقاليد والأخلاق المتوارثة، وإلى التفسيرات الرجعية للأديان.

نتساءل، ألا تسبب الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية غير الإنسانية، غير العادلة، التى يعانى منها عدد كبير من النساء فى المدن والريف، خدشا للعادات والتقاليد؟

أليس الفقر والحرمان اللذان يحاصران غالبية النساء، أمرا مخالفا للشرائع؟ ولماذا لا تتورط الأخلاق، والفضيلة، حين يكون نصف المجتمع من النساء، مكبلا بتراث من الاضطهاد، والتشكك، والقهر؟

إن الانحلال، والاستهتار، وضياع الأخلاق، سواء تكلمنا عن النساء أو عن الرجال، كلها نتائج مناخ الظلم، والتسلط، وغياب العدل والحرية. هى إفراز طبيعى لمناخ قاهر من القيم، وليست كما يعتقد البعض من نتاج مناخ الحرية.

إن المرأة الحرة، هى الأكثر قدرة على الفعل المسئول، الذى ينهض بها، وبمجتمعها. وكذلك الرجل الحر، هو الأكثر قدرة على التحكم فى غرائزه الهوجاء التى تؤذيه، وتضر بغيره.

لا خوف على الأخلاق والفضيلة، من الحرية. وإنما الخوف، كل الخوف، من الوصايا الأخلاقية التى تستخدم لخنق أنفاس الحرية، وإرهاب أصحاب قضايا التحرر والتغيير.

إن منطق الهجوم على الحريات (خاصة حريات النساء) بدعوى الحفاظ على الأخلاق، هو منطق ضد الأخلاق نفسها، وضد حركة الحياة.

نتذكر فى هذا السياق، أنه حدث فى القرن التاسع عشر، أن قام أحد الناشرين المتشدقين بالفضيلة، بطبع مؤلفات كل من موليير ولافونتين وراسين، فى طبعة خاصة بالعائلات الفاضلات. لكن المحاولة باءت بالفشل. والسبب، أن الأفكار التى تعمد الناشر حذفها حتى لا تفسد أخلاق الناس، كانت موجودة سلفا فى نفوس هؤلاء الناس.

المقصود من هذا المثل الواقعى أن الذى يتصور فساد الأخلاق لأن النساء يتحررن، إنما تكمن المشكلة فى داخله هو، وليس فى التحرر، وليس فى

النساء. وعليه أن يحل مشكلته بعيدا عن تقدم الحياة، وعن طموح النساء للعدل والمساواة والحرية.

إذا كنا نريد عالما جديدا أخلاقيا، فعلينا تحرير الأخلاق نفسها من السجن الضيق غير الأخلاقى الذى حصرناها فيه. وعلينا إعادة تعريف مفاهيم الفضيلة، والحرية، وتغيير النظرة إلى المرأة الحرة، أو التى تنادى بالتحرر.

ففى النهاية، نحن نتطلع إلى بناء إنسان حر، امرأة أو رجلا، لا إلى عبادة عمياء للقيود تحت اسم الحفاظ على الأخلاق، والفضيلة والتقاليد.

وبما أن ليس هناك قضية مثل قضية تحرير المرأة، التى تمس المشكلة الأخلاقية فى جذورها، وتكشف عن تناقضاتها، وأقنعتها، فإنه يقع على عاتق النساء الواعيات، مسئولية كبيرة فى صنع هذا العالم الجديد الذى نتمناه.

المرأة غير المتزوجة والجنون

قرأت عن دراسة مصرية حديثة، عن العلاقة بين النساء والجنون. خلصت الدراسة إلى أن النساء غير المتزوجات أكثر عرضة للمرض العقلى. وفسرت ذلك على أنه نتيجة الشعور بعدم الاستقرار، والوحدة، والغيرة، وافتقاد الدفء العاطفى.

إنه لشىء مؤسف أن تكون البحوث أو الدراسات «العلمية» ضد «العلم»، وضد «المعرفة»، ومع «التجهيل» و «تضليل الحقائق».

وشىء مؤسف، أن يتم تفسير نتائج البحوث والدراسات التى تأخذ صفة «العلم»، فى ظل الإطار الثقافى التقليدى، وبشكل سطحى، ضيق الأفق، يفتقد الرؤية الناقدة المبدعة.

وتكون النتيجة النهائية بعد كم كبير من البحوث والدراسات، أننا لم نتحرك إلى الأمام خطوة واحدة، وأن القيم المزدوجة التى تفرق بين البشر، تزداد رسوخًا. والكارثة أنها تزداد رسوخًا تحت رداء «العلم» و«المعرفة» و«الحقيقة».

تقول الدراسة إن المرأة غير المتزوجة أكثر عرضة للجنون من المرأة المتزوجة وجاء «التفسير» لأن المرأة غير المتزوجة تفتقد الاستقرار والدفء الأسرى، وتشعر بالوحدة، وتغار من النساء المتزوجات.

نحن لا نتشكك فى نتائج الدراسة، لكننا نشير إلى الطريقة التى تفسر النتائج.

إن عدم الزواج «قد» يؤدى إلى عدم الاستقرار، أو فقدان دفء الأسرة، أو الشعور بالوحدة.. لكن توقف التفسير عند هذا الحلم يعد قصورًا علميًا وإنسانيًا وفكريًا لا نقبله.

يكمن جوهر القصور فى إغفال، وتجاهل «مسئولية» المجتمع فيما تشعر به المرأة غير المتزوجة من أحاسيس «سلبية» تضر بصحتها النفسية والعقلية.

فى ثقافتنا العربية، هناك «رفض»، و «نبذ» و «استنكار»، و«اتهام» للمرأة غير المتزوجة.

لقد تأسست مجتمعاتنا العربية، فكريا بشكل يجعلها عاجزة عن «استيعاب» و «فهم» المرأة خارج مؤسسة الزواج. هذا الشكل الفكرى هو ما نسميه النمط الذكورى، أو الثقافة الأبوية. وتتضافر جميع قوى المجتمع فى جبهة محكمة لا يمكن اختراقها، لترسيخ، وإعادة إنتاج الثقافة الأبوية «الطاردة» للمرأة الوحيدة. أو المرأة التى تعيش، وتواصل التنفس، والحركة، وإثبات أنها على قيد الحياة دون «ضل راجل».

منذ الميلاد، تربى المرأة على أن الطموح الأعلى، والوجود الأهم، والسمعة الفاضلة، وغاية الحياة، هى فى دور «الزوجة» أى العيش فى كنف رجل يعولها ويحميها ويسترها.

ويتضاءل أمام دور «الزوجة» أدوارها الأخرى فى التعليم والعمل والإبداع. بل إن المجتمع يجبرها بحكم الثقافة الأبوية، علـى أن تتخلى عن التعليم والعمل والإبداع، إذا تعارضت مع دور «الزوجة».

أما الرجل، فيربى منذ الميلاد، على أن دوره كـ «زوج» هامشى، ثانوى مقارنة بأدواره فى إنتاج العمل والفكر والفلسفة، والإبداع.

إذا لم يتزوج الرجل، قد يفقد دفء الأسرة، لكنه لا يفقد دفء المجتمع. لكن المرأة غير المتزوجة تفقد الاثنين دفء الأسرة، ودفء المجتمع.

فى ظل هذا الحصار الشرس، وازدواجية القيم، تحتاج المرأة غير المتزوجة، إلى قوة خارقة، وإلى أسلحة استثنائية حتى لا يصيبها اضطراب عقلى أو نفسى.

كما أن القضية ليست الزواج أو عدمه.. القضية هى أى نوع من الزواج، ما غايته، وما هى دوافعه.. هناك نساء كثيرات متزوجات. ومحرومات من «الدفء» و «الاستقرار» ويشعرن بـ «البرودة» و«الوحدة»، وهن وسط أزواجهن .

وهل الزواج بالنسبة للمرأة يمنح أى «استقرار» والحقوق المطلقة معطاة للرجل وحده فى الطلاق والزواج بدون قيود أو مساءلة أو مسئولية؟

بالإضافة إلى ذلك، لابد من إعادة صياغة معان كثيرة نستخدمها. فالدفء ليس مرادفا لوجود رجل.. و «الاستقرار» ليس مرادفا لوجود بيت.. يحدد وظائف المرأة فى طاعة الزوج وخدمته.. و «الوحدة» ليست

مرادفا لحالة إنسان يواجه الكون بقدراته الذاتية ويحقق طموحاته السابحة ضد التيار.

هناك دراسات كثيرة فى مجال الطب النفسى، أثبتت أن المرأة المتزوجة أكثر شعورًا بالاكتئاب، والملل وعدم التحقق، من المرأة غير المتزوجة.. هناك ظاهرة معروفة فى الطب النفسى اسمها «اكتئاب الزوجات» أو اكتئاب ربات البيوت. ويرجع هذا الاكتئاب إلى شعور المرأة المتزوجة بالقهر أمام سلطة زوجها، وإلى إحساسها بعدم التحقق، وإلى خيبة الأمل، والفتور العاطفى والجنسى.

المشكلة إذن ليست فى الزواج أو عدمه. ولكن فى الإطار الثقافى والاجتماعى والأخلاقى الذى فى ظله تعيش النساء.

المشكلة هى القيم والمفاهيم التى تشكل المجتمع الذى تعيش فيه المرأة المتزوجة، أو غير المتزوجة.

القضية هى أن تتغير تلك القيم والمفاهيم الأبوية التى تعتبر الزواج للمرأة «مصيرًا محتمًا» مثل الموت لا فكاك منه، وأنه «أفضل مصير» يمكن تصوره للنساء. وفى الوقت نفسه، تتغير النظرة الأخلاقية والاجتماعية لـ «عدم زواج» المرأة، فلا يكون مرادفًا للشذوذ، أو الوحدة، أو الاضطراب العقلى، أو عدم التحقق النفسى والإنسانى.

«الزواج» (وبالتالى عدم الزواج)، جزء واحد من أجزاء الحياة، وليس كل الحياة.. ولذلك لا يجب أن نتوقف عنده بشكل مبالغ فيه، ونعتبر وجوده هو «الحياة».

الختان النفسى والاجتماعى

فى حديثنا عن الختان الذى يمارس ضد الإناث ، ننطلق من موقف الرفض لقطع ، أو تشويه ، جزء مهم ، أو حتى غير مهم من جسم الإنسان .

إن الختان الجسدى ، أو البدنى ، الذى يتعرض له جنس النساء، جريمة وحشية ، لابد أن يتم استئصالها من مجتمعاتنا ، ولابد من تضافر كل أجهزة المجتمع الإعلامية ، والتنفيذية ، والتشريعية ، فى حملة قومية ضد هذه العادة الهمجية ، التى تنتشر تحت اسم الفضيلة وحماية أخلاق المرأة .

لكننا نرى أن الختان الجسدى أو البدنى للمرأة ، أليس إلا جزءا ، أو حلقة من دائرة أكبر، ألا وهى ، الختان النفسى والاجتماعى .

فى كل المجتمعات ، وعلى مدى عصور متعاقبة ، وقعت النساء بدرجات وأشكال متباينة – وما زالت تقع ضحايا فلسفة عامة، تستهدف قتل قدراتهن ، وبتر حركتهن ، باسم الطبيعة أو الأنوثة، أو الدين، أو التقاليد ، أو الفضيلة، أو صالح الأسرة .

إن قطع ، أو تشويه جسد المرأة ، ما هو إلا الانعكاس الطبيعى، لقطع طموحها الفكرة ، والإبداعى ، وتشويه وجودها وقيمتها الإنسانية .

ما الفرق بين بتر جزء من الجسم ، وبتر إمكانات التحقيق الذاتى الحر ، تحت اسم موروثات جامدة ، نخاف المساس بها.

إن الفتاة التى حالفها الحظ لظروف ما ، وفلتت من الختان البدنـى ، ما زالت تعيش فى حصار متكامل مـن القيـم ، وعـادات التربيـة ومفـاهيم الأخلاق المزدوجة التى تحد من انطلاقها ، وتفرض عليها أدوارا محددة، منـاخ يعـامل المـرأة معاملـة (المتـهم) ، المشـكوك دائمـا فـى (دوافعـه) و(سلوكياته) و (أخلاقه) ، و (قدراته) ، والواجـب عليـه الدفـاع المسـتمر عن براءته ، مناخ يمارس دون وجه حق سلطات الرقيب الوصـى ، علـى حياة المرأة .

هذا المناخ ، يشكل الختان النفسى والاجتماعى ، الذى يصيـب المـرأة منذ رحلة الميلاد ، وحتى المـوت ، إنـه ختـان غـير مرئـى ، وهـو أكـثر تعقيدا ، من الختان البدنى ، أو الجسدى .

نحن نتساءل عن حال فتاة (مكتملة) الأعضـاء ، وتعيـش فـى مجتمـع يعتبرهـا (ناقصـة) العقـل ، والقـدرات والأهليـة والولايـة ، والفضيلـة ؟ وتحتاج دائما إلى (رجل) ليحمى لها أخلاقها ، ويبعد عنـها سـوء الفـهم وسوء السمعة ؟

نتساءل عن حال زوجة منحها (القـانون) ، حـق الاحتفـاظ بأعضائـها دون قطع ، وفى الأوراق الرسمية ، يمنعها (القانون) من السـفر دون أخـذ (إذن) الزوج ؟

أليس إذن الزوج ختان أيضا للمرأة ؟

ونتساءل هل يمكن للنساء أن يعيشن مع الأزواج حقـهن الطبيعـى فـى الإشباع الجنسى ، وهن محرومات من الإشباع الأرقى ، والأهم ، والأكثر ديمومة ألا وهو إشباع وجودهن الإنسانى الحر المتكامل ؟

وأليس تناقضا ، حين نتكلم عن ضمان الإشباع الجسدى للمرأة ، فى مناخ يتهمها بالاستهتار ، والإباحية ، حين تبادر بالتعبير التلقائى عن أبسط مشاعرها ؟ .

إن النتيجة الطبيعية للختان النفسى والاجتماعى ، هو المرأة الخائفة ، من كل شىء حولها تخاف التحرر ، والاستقلال ، والاختلاف ، الانطلاق ، والإحساس بالإشباع ، حتى لو لم تتعرض للختان البدنى .

إن الختان أساسا ، موقف نفسى ، واجتماعى ، متحيز ضد المرأة ، وبالتالى يكون قطع ، أو بتر ، أو تشويه جزء من جسمها : ليس إلا التعبير المادى ، أو الترجمة الجسدية ، لما هو مستقر أصلا فى نفوسنا ، ضد النساء.

إن الختان النفسى والاجتماعى ، لا تستأصله قرارات فوقية مفاجئة. إن القضاء عليه ، مرهون بتغيير جذرى فى نظرتنا إلى المرأة ولهذا ، فنحن نريد رؤية شاملة ، متكاملة ، لمفهوم (الختان) ، نريد تضافر كل أجهزة المجتمع ومؤسساته الإعلامية من أجل اقتحام جذور الختان ، والربط الدائم بين تشويه الجسم ، وتشويه النفس ، بين قطع أحد أعضاء الجسم ، وقطع الإنسانية والحلم ، إنه مشوار وعر ، وطويل ، لكن المهم أن نبدأ والآن .

نساء متحررات يمسحن حذاء الزوج

هناك (سوء تفاهم) تاريخى بيننا ، وبين (الحرية) . نحن نعتبر (الحرية) شيئا خارجيا ، يمكن أن يهبط فجأة من السماء ، ليحدث بمعزل عن إرادة البشر أصحاب قضية التحرر . نتصور أن (الحرية) يمكن أن تطرق الأبواب ، وتدخل للإقامة ، دون استئذان ، أو ترحيب ، من أهل البيت ، نتوهم أن المرأة فى بلادنا ، يمكن أن تتحرر ، لمجرد أن هناك جدلا دائرا على الورق وفى الحجرات المغلقة ، مكيفة الهواء ، بين مجموعات من النساء - هن أنفسهن - فى حاجة إلى التحرر الحقيقى ، وما زلن واقعات فى الأسر ، ولكن بشكل حديث ، عصرى ، يلائم تعقد ، وغموض ، نهايات القرن العشرين .

إن حريات النساء ، مثل حريات أية فئة ، أو طبقة، أو شريحة، لا تتحقق بالكلام ، والقرارات ، والتوصيات الرسمية .

يمكن أن يصدر قرار رسمى بعلاوة إضافية للموظفين ، أو بترحيل أجانب ثبتت إصابتهم بالإيدز ، أو بتغيير سفير ، أو وزير ، أو بمد حالة الطوارئ فى البلاد .

لكن أن يصدر قرار رسمى ، أو غير رسمى ، بأن تتحرر النساء، أو أن يكون للمرأة كرامة ، وصوت مؤثر ، داخل الأسرة ، وخارجها ، فهذا تبسيط لقضية معقدة ، متشابكة الأبعاد، لها جذورها التاريخية، ولا تزال ترسخها الأفكار، والممارسات .

نقول هذا ، انطلاقا من حقيقة ، أثبتتها حركة التاريخ القديم ، والحديث على حد سواء ، ألا وهى ، أن لا أحد يحرر أحدًا . كل إنسان مسئول عن حريته، أو عن قيوده . كل مجموعة من البشر، مسئولة عن تحررها، أو عن قهرها، لا أحد يستطيع إخضاعنا ، إلا بإرادتنا، وموافقتنا .

إن غالبية النساء ، ينسجمن ، ويتكيفن ، مع واقع ، وموروثات ، ضد إنسانيتهن . وحين يصبحن زوجات ، وأمهات ، فإنهن تلقائيا، يقمن بدور الملقن الأول للمفاهيم نفسها ، التى تعاملهن معاملة دونية . هن يكرسن التفرقة بين الولد ، والبنت ، ويأخذن سلطة الأب، أو الزوج، بديهية مسلما بها، لا تناقش، ولا تمس ، ولا هى موضع تذمر، أو استياء، وإن وصلت إلى درجة التعنت ، والاستعباد . إنهن يؤمن إيمانا راسخا، بأن (الطاعة العمياء) ، هى أكبر فضائل المرأة ، وهى أيضا، أهم دلائل ، ومظاهر (الأنوثة) .

إن غالبية النساء (حتى فى حالة تعلمهن ، واشتغالهن) ، يستعذبن انهن (ملزمات) من الرجال ، وانهن لسن (مجبرات) على الإعالة ، والإنفاق . وإذا حدث وأنفقن ، فهذا من باب التفضل، والتكرم على الرجل . ولكن (فتح البيت) هو مهمة ملقاة على الذكور الراغبين فى إكمال نصف دينهم ، بل إنها – فى الأساس – من محددات الذكورة .

إن غالبية النساء ، تسعدهن فكرة (قوامة) الرجل على المرأة ، ويعجبهن كثيرا أنهن (مثيرات) للفتنة ، ويشعرن بالزهو لتاريخ طويل

أبى إلا أن يخفى ملامحهن ، إما خلف حجاب القماش ، أو حجاب مساحيق التجميل .

وهناك عدد لا بأس به من النساء ، اللائى يتشدقن بالحرية . والمساواة، مطالبات المرأة بالتمرد على وضعها الأدنى فى الأسرة، ثم يذهبن إلى بيوتهن، يمسحن حذاء الزوج .

وهناك نساء تخصصن فى القانون ، ويشتغلن بالمحاماة دفاعا عن حقوق الغير، لكنهن فى الزواج يرفضن أخذ العصمة، بل أنهن لا يحترمن الرجل الذى يقبل هذا الأمر .

وكثيرا ما نرى نساء عضوات فى جمعيات تحارب العنف الممارس ضد المرأة، لكنهن لا يقاومن الأب ، أو الأخ ، أو الزوج إذا اعتدى عليهن بالضرب، أو الزعيق ، أو السباب .

وكثيرا ما تواجهنا نساء غاضبات من استكانة المرأة ، وفى انفعال بالغ، يعبرن عن ضرورة تغيير هذا العالم الذكورى ، وعن حتمية إصلاح الكون. يفعلن هذا، وهن (مكبلات) بالكعوب العالية ، و(مقيدات) بالحلقان ، والأساور، والشخاليل .

لا أدرى ، كيف يمكن لامرأة (أسيرة) الكعب العالى ، أن تحرك النساء ، وتحرر الناس ؟ كيف يمكن لامرأة تهتز فى خطوتها ، أن تعدل الكون ؟ كيف يمكن لامرأة أن تغير العالم ، وتقتحم الحواجز ، بأظافر طويلة ملونة ، وشعر مصبوغ ، وبشرة ناعمة معتنى بها ؟

ليس الشكل جزءًا من المضمون ، ولكنه المضمون الفاضح نفسه، والمجرد من الأقنعة. إن أشكال ، وملامح ، وثياب هؤلاء النساء اللائى يتكلمن عن الحرية، والتغيير، لا تعكس إلا قناعات هشة ، متراخية، ترقص على السلالم، وإن أجدن حديث الثورة ، والغضب .

ليست الحرية (ديكورا) نزين به كلامنا ، وليست الحرية (مودة) للتجمع ، واكتساب شهرة ، أو سببا وجيها لعقد لقاءات، تبدد روتين، وملل الحياة ، الحرية وعى، وجهد ، وشغل، وعرق، وتحمل مسئولية . الحرية حركة داخلية ذات كبرياء ، وهى استغناء عن الرضا، والاعتراف، والمديح ، والحماية المادية، والنفسية . وهى أيضا الشجاعة على دفع ثمن هذا الاستغناء .

إن انطفاء شهوة التحرر لدى غالبية النساء، هو المسئول الأساسى، عن دونية المرأة، وتخاذل إحساسها بالكرامة، وعن استجابتها الطيعة المستمرة لأحد دورين، إما أنها جسد يُعرى - أو جسد يُغطى. أو فى أحسن الظروف، جسد محايد، الغرض منه، هو اليقظة الكاملة، المسخرة عُرفا، وشرعا، وقانونا، لإرواء احتياجات الرجل الجنسية، وتلبية مطالبه المعاشية، وحمل الأجنة التى من شأنها أن تمد حس الزوج فى الدنيا الفانية.

إن شهوة التحرر، لا تحتاج إلى وعى معقد ، أو منطق متفلسف. نحن نسمع عن جداتنا الريفيات ، اللائى لم يعرفن القراءة ، أو الكتابة، ولم يحضرن مؤتمرات دولية عن حقوق المرأة ، والإنسان ، لكنهن -

ويا للمفارقة المحزنة – كن أكثر إدراكا بمعنى الكرامة ، وحظين باحـترام من أزواجهن ، يثير الدهشة .

نحـن فـى حاجـة إلى التسـاؤل ، لمـاذا لم يـؤد التعليـم، والعمـل، والشهادات الجامعية العليا والتحدث بلغات أجنبية ، وشـغل المنـاصب، وعضوية الهيئات الاجتماعية ، والثقافية ، إلى أن تغير المـرأة نظرتـها إلى إنسـانيتها ، وكرامتـها ؟ لماذا التـأرجح بـين عصـر (الحريـم)، وعصـر (اللاحريم) ؟ . والنتيجة ، هى عصر (الحريم) المودرن ، عصـر الحجـاب المزركـش ، المستورد، وعصـر السـباحة بمايوهـات شـرعية ، وعصـر الاستقلال الاقتصادى، دون مسئولية الإنفاق .

إن (الحريم) المودرن ، يتكلمن – بالطبع – عن حقوق المـرأة (هـذا هـو الجانب المودرن) ، لكنهن يؤكدن بشدة على أن هذه الحقوق ، ليست من أجل المرأة كإنسانة ، ولكن من أجل الأسرة ، والزوج ، والأطفال (هذا هو جـانب الحريـم)، هـن لا يتصـورن أنفسـهن – طـال الأجـل أو قصـر – إلا زوجات، وأمهات، مستورات فى بيت (العدل) المسجل باسم الزوج .

لا يخطر على بال (الحريم) المودرن ، أن إنسانيتهن فى حد ذاتـها ، كافية، لأن يحصلن على حقوقهن ، وحرياتهن ، التى تبـدو دون زواج ، وأمومة ، أمورا تثير الشك والريبة . وكأنهن يتساءلن ، ترى ماذا سـتفعل المرأة، بالحرية، وهى خارج الزواج ، والأمومة ؟

إن (الحريم) المودرن ، يعتبرن أن الإنجاب ، هو الوظيفـة الأساسـية، التى تشرف المرأة ، وتحـدد تميزهـا ، وليـس تعليمـها ، أو شـغلها . إن

امتلاك المرأة (رحما) ، لا يعنى ، ولا يبرر أن الإنجاب ، هو وظيفتها الأساسية ، إن علاقة الإنسان بالحياة ، لا يجب أن تحددها أعضاؤه .

إن الذى يشرف ، ويميز المرأة ، (إو الإنسان عامة) هو الفعل المتفرد الإبداعى، النابع من عقل ناقد ، ورؤية مغايرة للسائد ، وليس الفعل الذى يشترك فيه ، مع كائنات أخرى ، بسبب طبيعة لا فضل له فيها . المعروف أن الحيوانات ، هى الأخرى تلد ولديها غريزة قوية للأمومة .

كما أن تعبير (وظيفة) غير لائق. ليست الحياة، أو الكون، مصنعا يشتغل فيه البشر، إذا أرادت المرأة الزواج ، والإنجاب ، فهذه رغبات شخصية ـ تكون ثمرة لقاء عاطفى مع رجل تحبه ، وتريد مشاركته الحياة، وليست وظائف مفروضة. أن (الحريم) المودرن ، ينظرن إلى الزواج والإنجاب ، على أنهما مصير حتمى ، وليسا مجرد اختيار ، وبدونهما لا تتكامل ، ولا تتوازن المرأة .

وهناك نوع من (الحريم) المودرن ، يعتبر الرجل هو مقياس التحرر . فإذا كان (حريم) زمان ، وجدن فى الرجل ، المثل الأعلى داخل البيت. فإن (حريم) اليوم ، يجدن فى الرجل ، المثل الأعلى فى الحياة .

هن يتناولن قضية حقوق وحريات النساء ، على أنها قضية المساواة بالرجال . مع أن المسألة ، أكبر ، وأهم .

نحن لا ننكر وجود القيم المتوارثة التى تُعلى من شأن الذكورة . ولكن هذا ليس معناه، أن تقصر النساء ، نظرتهن إلى التحرر، بالرجوع إلى

الرجل. إن النظام التسلطى، القائم على التفرقة ، يفسد الرجل، مثلما يفسد المرأة. فالرجل أيضا ضحية ، ولكنه ضحية لها بعض الميزات النسبية ، إنها بالتحديد الميزات نفسها، التى شوهت نفسية الرجل، ونظرته إلى نفسه ، وإلى المرأة . وبالتالى، فالرجل، لا يصلح أن يكون (مرجعا) للحرية ، أو مثلا أعلى نتطلع إليه .

إن النساء اللائى يعتبرن الرجل ، مقياسا للتحرر ، (ناقصات) الطموح . المقياس لابد أن يكون الحق الإنسانى ، وآفاق الحرية اللامحدودة .

وهناك نساء ، يتعاملن مع المرأة ، على أنها مجرد (ترس) ، فى آلة كبيرة اسمها (المجتمع) . ويكون الاهتمام بالمرأة ، وسيلة للحفاظ على (سير) الآلة وزيادة كفاءتها فى الإنتاج ، والتشغيل .

إنه أيضا منطق (الحريم) المودرن ، الذى يعجز دائما عن رؤية (ذات) المرأة، ككيان مستقل . الاختلاف، إن هناك نوعا من (الحريم) يرى فناء ذات المرأة، فى الرجل (الأسرة الصغيرة)، ونوع آخر يرى فناء ذات المرأة فى المجتمع (الأسرة الكبيرة) .

هناك عجز مزمن فى القدرة على رؤية المرأة مكتفية بنفسها ، كاملة الأهلية، والإنسانية بدون أسرة ، صغيرة ، أو كبيرة .

إن أجمل ، وأعظم ما فى الحرية ، أنها لا تذهب إلا لمن يستحقها وشرط استحقاق النساء للحرية، هو أن يشتهين مذاقها المحرم فى كل فعل حياتى معاش، يصطدم بالضرورة بالتقاليد الموروثة ، وأن يخلعن مرة واحدة، وإلى الأبد، رداء (الحريم) .

شرف البنت فى عقلها !

لا أعتقد أن هنـاك مجتمعـات مثـل مجتمعاتنـا، مؤرقـة فـى نـهارها، وليلها، بالجدل حول (شرف البنت) و (شرف المرأة)، و (عذرية الفتاة)، ومنشغلة على مر عصورها وأزمنتها بـ (مراقبة) ماذا تفعل المرأة بـ (النصف الأسـفل) مـن جسـدها، وإصـــدار الأحكـام الأخلاقيــة، والاجتماعيــة، والثقافية، والدينية عليه .

نظرة سريعة إلى حـال مجتمعاتنـا، وتفزعنـا الحقيقـة . الكـل يتسـابق ليدلى بدلوه فى قضية شرف البنت . الكل متحفز لقول كلمتـه عـن شـرف المرأة. فالتقاعس عن ذلك، يعتبر من باب الخيانة التى لا تغتفر ، فشرف البنت، أو شرف المرأة، فى عرف المجتمع الذكورى ، هو شرف الأسرة، وبما أن الأسرة هـى نـواة المجتمـع الأولى ، يكـون «شـرف» المـرأة هـو شـرف المجتمـع الذكـورى بـالضرورة ، الكـل (طواعيـة) مدفوعًا بنــوازع الوطنية، وحماية الأخلاق، وشرف البلاد، يدخل فى (المزايـدات) حـول جسد المرأة. الكل يقول كلمته فى جســد المـرأة، وشـرف المـرأة، وأخـلاق المرأة، وعذرية المرأة، والتى تعكس ثقافته، ومصالحه، ومزاجه، وفكرتـه عن الشرف والأخلاق، والجسد، إلا المرأة نفسها .

تظل المرأة مختبئة وراء أنواع من (الأحجبة) سواء من القماش ، أو من القيم ، صنعت تاريخيًـا ، لكـى تتلقى فـى ابتسـامة ، رأى الذكـور فـى

جسدها وحكم الذكور فى أخلاقها ، ووصاية الذكور عن شرفها، وعذريتها .

قدر للمرأة ، أن تحمل لعنة الجسد الملتصق بها ، تعانى ما يحيطه من قيم الأنوثة المزيفة ، وما يسببه من أوجاع شهرية ، وتغيرات هرمونية ، ومضاعفات الحمل والولادة ، وعبء تنظيم النسل، وأضرار العنف الجسدى، وابتذال العرى لترويج السلع . كل ذلك دون أن يكون لها حق ملكية هذا الجسد ، أو شرعية التحدث باسمه ، أو الدفاع عنه، أو حتى مجرد الغضب مما تبثه أنظمة التسلط الذكورية .

تجددت مؤخرًا على مسامعنا مسألة (العذرية) و (اغتصاب) الفتيات، أفزعتنى وأدهشتنى الآراء التى قيلت عن كيفية (إعادة العذرية) للفتاة المغتصبة .

إن (إعادة العذرية) بالخياطة ، وعمل الغرز ، ليس فقط جريمة (طبية) ولكنه فى المقام الأول، جريمة (أخلاقية) و (إنسانية) فى حق الفتاة المُغتصبة .

ألا يكفى أن الفتاة قد تعرضت لاعتداء جنسى ، قد يصيبها بعقد جنسية ونفسية لا حل لها ؟

إن الاغتصاب اعتداء من فرد عليها ، واعتداء قد أجبرت عليه . لكن (إعادة العذرية) بالخياطة والغرز والترقيع ، اعتداء جماعى من المجتمع بأسره ، مدفوعة إليه باختيارها ، وعلى ملء سمع وبصر الجميع .

والكارثة الكبرى ، أنه (اعتداء) يتم تحت اسم الشـرف ، والأخـلاق ، والفضيلة .

الكارثـة الكـبرى ، أن الفتـاة المغتصبـة مـن (ذكـر) فـالت الشـــرف ، متسيب الأخلاق ، معدوم الفضيلة ، هى الضحية ، المجنى عليها ولكنها هى المطالبة من قبـل المجتمـع ، بـأن تدفـع ثمـن عـدم الشـرف ، وعـدم الأخلاق ، وعدم الفضيلة للجانى عليها . يطالبها المجتمع وهى الضحية ، بأن تضع جسدها المغتصب على مائدة الشرف المزيفة ، وتخضعه لعمليات القص واللزق والترقيع غير الأخلاقية .

أما الذكر القـائم بالاغتصـاب ، فـهو حـر تمامـا ، وجسـده فـى مـأمن ، ومحاكمتـه متهاونـة ، رقيقــة ، متفهمــة للنــوازع الكامنــة ، والدوافــع الغريزية ، والكبت المتراكم .

إن شرف البنت ، أو شرف المرأة ، ليس (غرزة) يتم ترقيعـها أو عـدم ترقيعها .

إن شرف البنت ، أو شرف المرأة ، ليس النصف الأسـفل للجسـد . إن الشرف ، حتى يكون حقًا (شرفا) أو فضيلة ، أو أخلاقًا ، لابـد أن تطبـق معاييره على جميع البشر ، دون تفرقة ، بين رجل وامــرأة ، بـين غنـى وفقير ، بين أبيض وأسـود ، بـين صـاحب ديانـة أو فكـر آخـر ، شـرف الإنسان لابد أن يكون واحدًا ، ولابد أن يكون مرتبطًا بالنصف الأعلى من الجسد ، أى بالعقل والتفكير .

إن شرف الإنسان رجلا أو امرأة ، هو قدرته على الاستقلال الاقتصادى والاستقلال النفسى . هو القدرة على مواجهة العالم بما نؤمن به، ونفعله، وليس إخفائه تحت اسم (الخوف من التقاليد) أو (إعادة العذرية) أو (ديكور الأخلاق) .

الشرف ، هو القدرة على السباحة ضد التيار ، ودفع ثمن اختلافنا .

إن شرف المرأة ، هو فى عقلها ، وشخصيتها وفلسفتها لتغيير ذاتها من كيان تابع مقهور، إلى كيان حر مستقل. شرف المرأة، هو رؤيتها النقدية لمجتمعها لتغييره إلى الأشجع، والأعدل، والأجمل، والأصدق .

إن مفهوم مجتمعاتنا عن (الشرف) مخجل ، ومضحك ، ومحزن فى آن واحد .

كيف للإنسان العربى (الرجل العربى والمرأة العربية) أن يواجه مشكلاته الحاضرة وتحدياته المستقبلية ، وهو مقتنع أن الأخلاق والفضيلة، فى أسفل أجساد النساء ؟

كيف للرجل العربى أن يثق فى وطنه ، ويشعر بالانتماء إلى مجتمعه ، والوطن والمجتمع يطالبان الفتاة المغتصبة (من رجل آخر) بأن تخفى الأمر بـ (الترقيع) ؟

ما هذا المجتمع الذى يتعاطى الكذب ، والإخفاء ، باسم الصدق والشرف ؟ وما هذا المجتمع الذى يختصر المرأة إلى (غرزة) ؟

هل ينتهى عصر القطط المغمضة ؟

الحديث عن الأسرة المصرية، حديث ذو شجون يلمس حاضرنا ومستقبلنا. وهو حديث طال الاشتياق إليه، فأشياؤنا الجميلة فى وضح النهار وأمام أعيننا، تنهار. و (مصر التى فى خاطرى) والتى نغرقها فى أناشيد التعظيم والتقديس، ترقد على ضفاف النيل، وبنا تستغيث . لكنها كلل العظماء تستغيث فى استيحاء. تعرف عبث الصراخ فى حضارة الضوضاء . تترفع عن مد يدها طلبا للمعونة. يا للعجب كيف اليد التى أعطت تستحى ممن يأخذ ؟ تكتفى بإرسال إشارات واللبيب بالإشارة يفهم. والفهم لا يحدث إلا بالسؤال عن أصل الأشياء .

لا فهم لما يحدث داخل بيوتنا المغلقة ، والمسماة بالخلية الأولى دون أن نفهم كيف تتكون تلك الخلية ؟ ولماذا تتكون ؟ بمعنى آخر، نحن نتساءل عن الدوافع التى تدفع المرأة لأن تتزوج وتكوّن أسرة ؟ وإلى أى مدى يتدخل المجتمع ليشكل تلك الدوافع ؟ وهل هناك دوافع معلنة، وأخرى غير معلنة ؟ وكيف تسير العلاقة بين المعلن وغير المعلن ؟ وبعد فترة من الزواج ، هل تتغير الدوافع؟ وحين تتغير ، ألا يحق لنا أن نتوقع تغيرًا ما فى بنية الأسرة والعلاقات القائمة بين أطرافها ؟

الرجال لماذا يتزوجون ؟

هذا رجل يعتذر عن فوضى بيته وعدم نظافته وضياع جواربه وعدم وجود أكل .. بقوله (معلهش أصل أنا عازب وأنتو بقى عارفين حياة

العزاب) وهذه نصيحة من أب (يا بنى أمك مش قادرة علينا زى الأول كمل نص دينك عشان تلاقى لقمتك وهدمتك وتريحنا كلنا) .

رجل آخر محظوظ عنده فلوس وأملاك ويتحسر لأنه وحيد . يتزوج ليضمن ذهاب الإرث لابن يحمل اسمه ومن صلبه . رجل آخر عنده بعد نظر. يفكر ماذا يفعل حين يتقدم به العمر، ولا قدر الله يمرض؟ من سيقدم له الدواء؟ ومن سيؤنسه بعد رحيل أصدقاء العمر ؟ فيتزوج ويضمن الصحبة .

أما الرجل الطموح ، فيتزوج ليتحرر من أعباء المنزل أو الأعمال التحتية . ليتفرغ هو للبنية الفوقية فيفكر ويبدع ويكتب ويشتهر . آخرون يتزوجون مدفوعين فقط بالجاذبية الجنسية . ويتزوج آخرون لقتل ملل الحياة .

وهناك بالطبع رجال يتزوجون وهم يرددون أهمية حفظ النوع من الانقراض فى كل الأحوال .

آخرون يتزوجون هروبا من حب قديم ، أو هروبا من نظرة المجتمع التى تضع المتزوجين فى مرتبة أعلى .

وهناك رجال يأخذون من الزواج وسيلة للعلاج النفسى فهم ينفسون عن رغبات التسلط أو السادية المترسبة منذ الطفولة .

أعرف رجلاً تزوج ليستطيع الغضب بسهولة دون أن يحسبها.. وعنده حق، فالغضب مع الزوجة لا خطر منه. أما الغضب مع الأصدقاء أو الغرباء أو رؤساء العمل، فيهدد ويزعج .

النساء لماذا يتزوجن ؟

رغم وجود تداخل فى بعض الدوافع السابقة بين الرجل والمرأة ، فإن هناك دوافع تنفرد بها النساء . فالمرأة تتزوج لتجد من يطعمها ويشرّبها ويلبسها ويسكنها ويسترها . باختصار الإنفاق والحماية بنسب متفاوتة وفقا لكل امرأة. وقد تكون الحماية من أهلها، أو من المجتمع . فالمرأة غير المتزوجة ، يقولون (فاتها القطار) - غير معترف بها ، وهى تثير الريبة والاتهام ، وهى غير مرغوب فيها . وقبل كل هذا، تعتبر (صيدة) من قبل الرجال المتزوجين وغير المتزوجين على السواء .

والدوافع لابد لها من مواصفات مناسبة . نمط الرجل لابد أن يشبع دوافع المرأة . ونمط المرأة لابد أن يشبع دوافع الرجل . ولا شىء أنسب للزوج من القدرة المادية (الرجل ما يعيبوش إلا جيبه) ولا شىء أنسب للزوجة من الطاعة . نمط (القطة المغمضة) وهكذا تقام ليلة العمر وسط الأغانى والزغاريد ، ويأتى المأذون والحبايب يباركون زواج الـ (فلوس) بـ (الطاعة) .

وبعد فترة من الزواج ، تظهر التناقضات ومعها النكات الساخرة المتخصصة فى تصوير سلوك ومشاعر الأزواج والزوجات. فالرجل تزوج المطيعة، الخادمة، المريحة . لكنه يهرب منها إلى أخرى لا تخدمه ولا تطيعه ولا تريحه . لقد عقد قرانه على (قطة مغمضة) ثم يقع فى هيام واحدة (مفتحة) . أراد للأسرة امرأة له عليها سلطة . ويريد لقلبه امرأة لا يملك عليها سلطة . عندنا ظاهرة (تسرب الأزواج) من العملية الزواجية .تماما مثل ظاهرة (تسرب التلاميذ) من العملية التعليمية،

استقرار الملابس والغذاء شيء ، وحركة مشاعره شيء آخر، ويبدو أن عقل الرجال، قد ثبت بشكل أنهم لا يتصورون الاستقرار ولا يتوقعون الحنان والعطاء، إلا إذا كان مرادفا للخضوع . ورغم أن العرف والقانون يعطيان الرجل اليد العليا على الزوجة ، فهو حر قبل الزواج وحر بعد الزواج . فإننا نفاجأ بأمر قد يبدو متناقضًا لأول وهلة. فالزوج يعمل حساب زوجته ويخاف منها. وهناك الكثير من النكات التى تصور هذا. والتناقض لا محل له. فلابد أن يخاف، فرغم خضوعها فإن الزوج، لا يريد الدخول فى أى مشكلة تعكر استقراره الذى يتيح له الحرية بعد الزواج .

نحن نردد طول الوقت أن الدولة التى لا تملك طعامها ، لا تملك قرارها ، ولا تملك بالتالى حريتها . وهذا المبدأ صحيح أيضًا مع البشر، لكننا لسبب ما ننسى أن المرآة تنتمى إلى البشر . إن المرأة التى لا تملك طعامها ، لا تملك حريتها . والمرأة غير الحرة ، لا تسعد إلا الرجال المرضى فاقدى الثقة فى أنفسهم . المرأة غير الحرة ، لا تخلق إلا أجيالا خاضعة .

فالقطط المغمضة لا تلد إلا قططًا مغمضة . ليست فقط مغمضة ، ولكنها أيضا تعيسة . لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

حرية وسعادة واستقامة الأسرة لا تتم بمعزل عن حرية وسعادة واستقامة العناصر المكونة لها .. أى الرجل والمرأة . ولا حرية ولا سعادة ولا استقامة ، بدون التطهر والتحرر من الدوافع المريضة . وبعد تغيير النظرة لكل من المرأة والرجل ، يصبح الحب الإنسانى الحقيقى، هو

الدافع الأول والأخير للزواج وتكوين أسرة . نسمع من الرجل قبل الزواج أنه (يكوِّن) نفسه ، بالفلوس لكننا نريد أن (يكوِّن) الرجل نفسه و(تكوِّن) المرأة نفسها ، إنسانيًا ونفسيًا وأيضًا ماديا .

نريد أن يبحث الرجل فى الزواج عن تكامل كيانه ، وليس عن جواربه ، وأن تبحث المرأة فيه عن تكامل كيانها لا عن وجبة .قبل الزواج . لابد أن يكون الرجل عائلا لنفسه ، وحرًا وسعيدًا ، بحياته كما هى . قبل الزواج ، لابد أن تكون المرأة عائلة لنفسها وحرة وسعيدة بحياتها كما هى . ثم يحدث اللقاء بالزواج . لا يوجد أجمل من التقاء رجل وامرأة بهذا التكوين .

هذا هو اللقاء الوحيد الذى يحدث فيه الأخذ والعطاء . دون أن يخسر أى طرف حريته أو سعادته .

وهذا هو الضمان الوحيد لخلق أسرة مستقيمة الخلق ، سعيدة وذات كرامة .

عن الفن والأدب

زمن الغناء الجميل!

مـارس.. شـهر بدايـات الربيـع، وتفتـح الزهـور، والقلـوب، وصرخـة احتجاج الأرض ضد صومعة الشتاء.

مارس.. شهر لا مثيل له طوال العام. فى مارس نحتفل بميـلاد اثنـين من عمالقة موسيقانا العربية..

عبد الوهاب ١٣ مارس، وسيد درويش ١٧ مارس.

ليس صدفة أن يكون ميلاد سيد درويش، وعبد الوهاب، فـى مـارس. لقد أحدث كل من سيد درويش، وعبد الوهاب «هزة» فنية غـير مسـبوقة فى موسيقانا. تمامـا مثلمـا فـى مـارس تـهتز الأرض، وتتحـول، وتتبـدل ملامحها لتمنحنا موسم الورد، والدفء، وعنفوان الحياة.

«سيد درويش».. الفتى الاسـكندرانى الفقير، غنـى الموهبـة، لم يعـش إلا ٣١ عاما، واستطاع أن يصنع ثورة فى الموسيقى العربيـة. تتمثـل هـذه الثورة فى تخليص موسيقانا من تأثرها بـالروح التركيـة، وخلـق موسـيقى مصرية نابعة من الحس المصـرى، والهمـوم المصريـة، والأحـلام المصريـة. كذلك ينسب الفضـل إلى سـيد درويـش، فـى نقـل الموسـيقى العربيـة مـن مرحلة التطريب الصرف إلى مرحلة التعبير. ويعتبر سـيد درويـش البدايـة الحقيقية للتحديـث فـى الموسـيقى العربيـة.. غنـى الشـيخ سـيد للشـعب المصرى كله، بكافة قطاعاتـه، وطوائفـه، وفئاتـه. ولا ننسـى ريادتـه فـى

الغناء للمرأة المصرية، يحثها على النهوض، والتقدم، وترك الخضوع والسلبية.

«عبد الوهاب» قامة فنية شامخة، حمل مهمة التجديد والتنويع فى الموسيقى العربية لعدة أجيال متعاقبة، أثرى عبد الوهاب موسيقانا العربية، ليس فقط كمطرب له صوت متفرد، ولكن أيضا من خلال ألحانه التى قدم بها مختلف الألوان الموسيقية «الموشح، الدور، الطقطوقة، المونولوج، القصيدة المسرحية الغنائية، الموال والأغنية الخفيفة».

أضفى عبد الوهاب، على موسيقاه المصرية الأصيلة، بعض الجمل الموسيقية الشهيرة، من موسيقى عالمية. من الأمثلة الكلاسيكية، فى تاريخنا الموسيقى أغنية «أحب عيشة الحرية»، التى أخذ عبد الوهاب مقدمتها بالكامل وبشكل حرفى، من افتتاحية السيمفونية الخامسة لـ «بيتهوفن».. القضية هى كيف بعد اقتباس جملة لحنية مشهورة عالميا، أن يشيد بناء موسيقى أصيل تتضح فيه الموهبة والقيمة الفنية؟ وإذا لم يقر البعض هذا الاقتباس، فما عليهم فى الحقيقة إلا استبعاد كل من صنعوا ذاكرة الشعوب الموسيقية. فمن المعروف أن كل كبار الموسيقيين فى العالم، قد مارسوا هذا الاقتباس المشروع فى تاريخ الموسيقى.

كان عبد الوهاب، شديد الإخلاص لمن سبقوه على درب الموسيقى العربية، وخاصة سيد درويش ونذكر هنا مقولته الشهيرة «أنا درويشى حتى العظم».

فى مارس من كل عام نحتفل بميلاد سيد درويش، وعبد الوهاب. شيء جميل أن يظل هناك خيط من التواصل والوفاء بيننا وبين من صنعوا هويتنا الموسيقية.

لكننا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا الاحتفال، نغمة «نشاز» وسط «الواقع الغنائى» الذى وصلنا إليه.

إن «حالتنا الغنائية» لم تعد مؤهلة لموسيقى عبد الوهاب، وغير متوافقة مع ألحان سيد درويش.

لقد سادت الساحة الغنائية مجموعة من الأصوات التى تفعل بنا أى شيء إلا الغناء. أصوات متشابهة القبح، تترنح على أنغام مستهلكة خالية من الموسيقى، مزعجة الإيقاعات، تثير التوتر، والدوشة، وتصيب الأذن والروح بالتلوث والاستياء.

عدد لا حصر له من الأغنيات يحاصرنا، لكنها أغنيات خاصمت الغناء، ومغنون يفتقدون الموهبة، والحضور والشخصية.

لست أدرى، هل أصبح الغناء فى بلد سيد. درويش وعبد الوهاب، مهنة من لا مهنة له؟ هل أصبح الغناء فى بلد سيد درويش، وعبد الوهاب مرادفا للتصفيق فى الموالد وتسالى الأفراح؟ كيف أصبح الغناء مرهونا فقط بالفلوس التى تستطيع «تعبئة شريط» وتسخير التكنولوجيا الحديثة دون اعتبار لأى حد أدنى من الموهبة، أو القيمة الفنية؟

لقد اكتسبت تلك الأصوات، عديمة الصوت والموهبة والقيمة الفنية، الانتشار والشهرة واعتلت فى جرأة الساحة الغنائية. وبكل أسف، تجد

التشجيع، والترحيب مادامت أنها تملك أسلحة العصر النافذة.. الفلوس أو الواسطة أو الاثنتين معا.

ومما يزيد الأسف، أننا نجد أصواتا مصرية كانت تستحق أن تنال من التقدير والشهرة ما يجعلها جزءا «حقيقيا» من معالم الغناء فى مجتمعنا.

أحد هذه الأصوات عادل عثمان، الذى استمعت إليه مؤخرا فى حفلاته التى يحييها أسبوعيا فى نادى الجزيرة.

إنه صوت آت من زمن الغناء الجميل الذى افتقدناه. صوت يجمع ما بين القوة والحساسية.. له حضور غنائى يأسر الانتباه متعدد الدرجات، يفاجئنا بقفزات وتنويعات صوتية نكاد معها «نرى» النغمات وليس فقط نسمعها.

استمعت إليه فى أغنياته الخاصة به، وكذلك فى أغنيات أم كلثوم، وفيروز، ومحمد فوزى، وكارم محمود، وعبد الحليم حافظ وسعد عبد الوهاب. يسمعنا الألحان القديمة بإحساس جديد، يخلقه هو بشخصيته وفلسفته عن الغناء، وأدائه المتعدد الأصوات ومثلما يجيد ويبدع فى أداء الأغنيات الشرقية.. يجيد ويبدع فى الأغنيات الغربية بالثلاث لغات، الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية.

إنه ينتقل بسلاسة، وتمكن من أم كلثوم إلى «فرانك سيناترا» ومن فيروز إلى «شارل أزنافور» ومن محمد فوزى إلى «توم جونز» ومن عبد الحليم حافظ إلى «انريكو ماسياس» ومن كارم محمود إلى «أنجل برت».

لقد خلق فى نادى الجزيرة جمهورا يأتيه كل أسـبوع، وحقـق شـعبية فى مكان تتنوع فيه الأذواق، وتتعدد الأمزجة بشكل كبير.

ويبقـى السـؤال: كيـف لموهبـة مثـل صـوت عـادل عثمـان ألا تحتـل ما تستحقه من التقدير والشهرة؟.. فى حين تحاصرنا فى كـل مكـان ليـلاً ونهارًا أصوات بلا موهبة تفسد ذوقنا الموسيقى، وتحاصر حياتنا الغنائية، وترتكب جريمة ثقافية فى حقنا وفى حق الأجيال القادمة؟

إن أكبر احتفال بسيد درويش، وعبد الوهاب يكون أساسا فى مقاومـة المحاولات التى تخرب هويتنا الموسيقية، متسترة وراء الغناء، وفى إعادة غربلة الخريطة الغنائية وإعادة صياغة المقاييس الفنية وراء الشهرة، فالفن الأصيل هو العنـوان الحقيقـى لرقـى الشـعوب، والمناعـة القويـة ضـد أيـة انتكاسة حضارية، والأغنية بالتحديد بحكم طبيعتها وشكلها أكثر الفنـون تعبيرًا عن حـال مجتمعـها، وأكـثر الفنـون تأثـيرا (سـلبا أو إيجابـا) فـى وجدان الناس.

لقد عبر أحد الفلاسفة عن هذا المعنى قائلا: «لست أبـالى بمـن يحكـم بلادى، مادمت أنا الذى أضع أغانيها».

الفن طريق إلى الديمقراطية

تكتسب الديمقراطية أهميتها القصوى فى مسار تاريخ الشعوب، من كونها القضية الأكثر تجسيدا للعدالة بين البشر، وترسيخا لقيمة الحرية فى الممارسة العملية.

أما الفن بجميع أشكاله فهو تصور جمالى وعوالم أخرى.

إن الفن يوجد لنا مجموعة من الرؤى، لا تختص فقط بالحاضر والمستقبل، ولكن أيضا بالماضى.

وإذا كانت ملكة التخيل، موجودة عند كل البشر، لكنها أكثر حضورًا، وإلحاحًا عند أهل الفن، والتخيل، هو الذى يجعل الفنان (أو الفنانة) بطبيعته ضد كل الثوابت، والبديهات، الفن هو التساؤل الدائم المتجاوز كل إجابة.. والفن يضع قوانينه الخاصة، ويوجد طرق تذوقه، والنظر إليه.

يتضح من هذه المفردات المميزة للفن، أنه يفترض منذ البداية، حدًا أدنى مرتفعا من ضمان حريات التعبير، والترحيب بكل أنواع الاختلاف، وعدم الخوف من التساؤل، وهى كلها من سمات مجتمعات الحرية، والديمقراطية.

نحن نتعلم من «الفن» كيف نسعد بالقصص، والروايات، وكيف نستمتع باللوحات، والموسيقى، الصادرة من عقل وعاطفة «آخر»، أعظم ما يميزه هو تمرده علينا نحن المتلقون له. أليس هذا تدريبًا جميلاً على الديمقراطية؟

إن أرض الفنون، مفتوحة الحدود لكـل النـاس، ولا تشـترط تأشـيرات للدخول، أو إجادة لمؤهلات معينة، اللهم إلا التحرر مـن كـل التحـيزات المسبقة، والرغبة فى الانفتاح علـى عـوالم مغـايرة. هـذا الـترحيب المتـاح للجميع، أليس هو المساواة بـين البشـر، فـى أعلـى معانيـها؟ لكننـا بـين الحين والآخر، نشهد نقاشا عقيما عن العلاقة بين حرية الفنان، وحريـة المجتمع، حيث يقول البعض أن للفنان حريتـه، بشـرط ألا يمـس حريـة المجتمع. البعض يرى حرية الفنان محمودة، طالما أنها لا تصدم المـألوف والسائد فى المجتمع، مثل هذه الأقاويل، تسيء فـهم الفنـان، والحريـة. فليست «الحرية»، كتلة ماديـة ثابتـة. إذا أخـذ منـها الفنـان، سـينقص نصيب المجتمع منها.

إن المجتمع حر، قدر مـا يضمـن، ويرسـخ حريـات الأفـراد، خاصـة حريات أهل الفن. وهذه إحدى المفارقات الجميلة لعطاء الحرية. كمـا أن «الحرية» متغيرة. وبالمثل ما نسـميه «المـألوف» و «السـائد». فـإذا اتفقنـا على أن الحياة فى حركة نمو مستمرة، وكذلك البشر. فـإن الحريـة تنمـو بالضرورة هى الأخرى. والمجتمع الذى يريـد البقـاء، والازدهـار لابـد أن يساير هذا النمـو، وأن يعيـد باسـتمرار مفهومـه للحريـة، ورؤيتـه لمـا هـو مألوف، وسائد. إن أى تقدم حققته الإنسانية، يمكن تعريفه بأنه الغربلـة المستمرة للمألوف، وإعادة صياغة للسائد.

إن التخـوف الشـديد الـذى يظـهره البعـض، مـن حريـة الفنـان علـى المجتمع لا محل له . إن الفنان مشغول أكثر من غيره، ببنـاء عـالم أكـثر جمالا وشجاعة وعدلا، ولذلك فإن إبداعه لا يقلب الأشياء ولكن يعدلهـا،

وهو لا يخرب ولا يفسد، لكنه يعمر، ويبنى وهذا يستلزم بالضرورة البدء فى هدم الظلم والقبح، لإقامة العدل والجمال.

إن معاداة الفن، أو محاولة تقليص مداه وآفاقه، هى فى الوقت نفسه، معاداة للديمقراطية، فالمجتمع الذى يتشكك فى الفن، ودور الفنان، هو فى اللحظة نفسها، يجهض نهضته المادية، والروحية على حد سواء. من هذا المنطلق، لا تكون «الحرية»، حقا من حقوق الفنان، يضمنه المجتمع ويدعمه، لكنها أيضا «واجب» على الفنان، لتحقيق رسالته نحو ذاته، ونحو مجتمعه والإنسانية.

إن كل قصة، أو قصيدة، أو قطعة موسيقى، أو لوحة، إنما هى درجة على سلم الحرية، يصعدها أهل الفن، ويشدون معهم الآخرين فى حوار جمالى، وتفاعل فكرى، بين طرفين، تمنحهما الحياة أغنى مكنوناتها.

فى المجتمعات التسلطية بجميع أشكالها، ودرجاتها، حيث القهر هو النغمة السائدة، يتعثر هذا الحوار الجمالى، والتفاعل الفكرى . ويخاف أغلب الأفراد، من الحرية. إن الإنسان، أو المجتمع، الخائف من الحرية، يتقبل أى تشخيص أو تبرير لحالته. لكنه لا يتحمل أن يوصف بالخوف من الحرية ، لأن ذلك يعنى الخوف من الحياة ذاتها، بكل ما تحمله من إمكانات النمو، والانفتاح، والمعرفة، والسعادة.

ولكن وكما قال «سارتر» فى بداية روايته «الغثيان»: «المصيبة أننا أحرار».. أى أن الحرية، هى قدرنا مهما حاولنا الهروب منها. والفن الحقيقى، خطوات مضيئة نحو هذا القدر. وعلى المجتمعات الطامحة للديمقراطية، والتحرر، أن تتعاون مع الفن فى رسالته السامية، اللامحدودة الآفاق.

إلى نزار . . الثائر
ضد العشق فى العتمة

ماذا أكتب عنك يا نزار بعد الرحيل ؟

تستحى الكلمات أن تمنحنى مذاق المعانى، وعنفوان الإيحاء، أرحلت حقا عن دنيا الناس؟

وكيف لا ترحل؟ ودنيانا مغرورة، حمقاء، لا تعرف قدر مثلك من العظماء، ولا تتسع رغم رحابتها لشاعر يقلب موازين الأشياء، ويثور على كل قافية ومنطق ومعتاد؟

بعدك يا نزار، يبحث الشعر عن مسكن مريح، ممتع، رحب الطرقات، دافئ الجدران، يستقبل كل عابر سبيل ضل النغم والطريق، بابتسامة عاشق مشتاق.

بعدك يا نزار، تيتمت قلوب تخفق بالحب، والفرح، ومعاندة التيار.

أنت لم تكن واحدا من الشعراء، وإنما أنت الشعر، فى أحلى تجلياته، وأجمل شطحاته، وأعقل جنونه.

الفنان هو فى الأساس، فصيلة نادرة من البشر، وفن الكتابة على وجه الخصوص، يستلزم إنسانا أكثر ندرة، وكان «نزار» هو التجسيد المكتمل لفن خلق الكلمات.

كل ما فى «نزار» طفولته، أسـرته، مزاجـه، طباعـه، أحلامـه، لـون عينيه، قامته، قوامه، نبرة صوته، كلها أشياء تـألفت، وتـأنقت لتصنـع «الشاعر» كما ينبغى أن يكون، حتى تاريخ ميـلاده فـى ٢١ مـارس، هـو التاريخ المثالى لمولد رجل مسكون بجنون الشعر، ثائر علـى الأشـياء حتـى على نفسه، عصى التوصيـف، لا يعـرف الثبـات، جـامح كـالبحر. فـى ٢١ مارس يبدأ برج «الحمل» البرج الذى يشهد تحـولات الأرض، وثـورة الطبيعة على أسر الشتاء.

البرج الذى قال عنه «نزار» أنه برج الذين قرروا أن يسـرقوا النـار مـن السماء.

ينتمى نزار إلى برج «الحمل»، البرج الوحيد بين الأبراج يجمع ما بين النار والهواء، وهل الشعر شىء آخر، إلا الإحتراق بالنار، والسـفر الدائم على متن الهواء؟

لكن نزار لم يسرق النار من السماء، لأن السماء كما قال لم تكن تهمه، وإنما كانت نار الأرض هى غايته، لقد سرق ركودنـا الفكـرى وتناقضاتنـا الأخلاقية، وألقى بهما فى وجوهنا، كاشفا الزيف، عاصيـا أوامـر الموتـى التى تحكم الأحياء، والتقاليد الخرساء التى تعـوق شـدو الحيـاة متجـدد النغمات والإيقاع.

يعرى «نزار» الكذب، والنفاق فى العواطف بين الرجل والمرأة وبـالقدر نفسه، وبالحدة نفسها، يعـرى الكـذب والنفـاق فـى الحيـاة الاجتماعيـة والسياسية.

على مدى نصف قرن من الزمان جاهد «نزار» أن يعيش الرجل العربى حياة واحدة، فى علاقته بالمرأة. كتب «نزار» معاديا «الشيزوفرانيا الذكورية» «الفرق بينى وبين بقية العشاق، أنهم يحبون فى العتمة، وضمن جدران غرف النوم المغلقة، أما أنا - فلسوء حظى - أننى رسمت عشقى على الورق، وألصقته على كل الجدران.

هذه هى مأساة الفنان، أنه لا يستطيع أن يتصرف فى الحياة بشكل وعلى الورق بشكل آخر، إنه ملزم كشاعر بأن ينقل سريره إلى الشارع، ويضع عواطفه تحت تصرف جميع المواطنين وفى خدمتهم كالتماثيل والأرصفة والحدائق العامة، ولأننى لا أستطيع ممارسة العشق فى العتمة، ولا أستطيع أن اخبىء حبيبتى فى سرداب من الحجر، أصبحت قصائدى وثائق اتهام موقعة بإمضائى.. إن شاعر الحب فى بلادنا يقاتل فوق أرض وعرة، وفى مناخ عدائى ردئ».

وبالقدر نفسه، جاهد «نزار» أن تتخلى المرأة العربية عن منطق الجوارى، والحريم، وأن تطالب بحقها فى التعبير عن عواطفها، ورغباتها، وآرائها الحرة، دون الخوف من شيوخ القبيلة، أو تقاليد الذكور مزدوجة المقاييس.

يكتب «نزار»:

أنا هارب من كل إرهاب يمارسه

جدودك أو جدودى

أنا هارب من عصر تكفين النساء

وفى سياق آخر يكتب محرضا المرأة على الثورة:

لا أنت من صنف العبيد ولا أنا أهتم فى بيع العبيد

إنى أحبك جدولا وحمامة

ونبوءة تأتى من الزمن البعيد

وأنا أحبك فى احتجاج الغاضبين

وفرحة الأحرار فى كسر الحديد

وعلى مدى نصف قرن من الزمان، يدخل «نزار» المعارك الضارية من أجل أن يكتسب «الكاتب» شرفه وكرامته.

ولا شئ يمنح «الكاتب» شرفه إلا عدم انتمائه إلى مقاعد الموالين، والمصفقين. وليست كرامة «الكاتب» إلا أنه حالة معارضة دائما. الكاتب الحق عند «نزار» هو من «يشعل الحرائق فى وجدان الناس» وهو الذى يزهو بكل حجر يقذف به، ويعتبره وسام استحقاق للشرف، والشعر، بل للحياة ذاتها.

ولأن «نزار» يؤمن بأن الشعر «طهارة من الداخل والخارج» فقد أحب من هاجمه، كما أحب من أيده، وكان دائما يؤكد أن الشتيمة تعلمه أكثر من المديح، ولم يفكر يوما فى رد الشتيمة لصاحبها، لأنه يعتقد أن «الشتيمة تعاقب نفسها».

يقول نزار: كلما سمعت شاعرا يشتم شاعرا غمرنى الأسى وتساءلت: ترى ألا تتسع الأرض كلها لركض حصانين؟ أنا لا أتصور أن شاعرا يمكن أن يأخذ من سواه شيئا.

فالدروب كثيرة، وميدان السبق مفتوح لكل الخيول المتسابقة، ولن تربح فى النهاية سوى المواهبة».

أين نحن من هذه الرحابة فى الفكر، وهذا الاتساع فى الأفق والإحساس؟

فى كتابه النثر «قصتى مع الشعر» والذى لا يقل شاعرية عن شعره ، يحكى لنا «نزار» عن «نزار» الطفل، والمراهق، والرجل المحب العاشق، والإنسان الغاضب الوطنى الثائر.

يأخذنا فى رحلة ممتعة إلى أسرار قلبه، وعقله، وهواجسه، وأحزانه، وأفراحه . الجميل فى هذه الرحلة، أنها قدر ما تكشف أسرار «نزار» ونواحى ضعفه، وقوته تكشف لنا فى الوقت ذاته، عن أسرارنا نحن، ونواحى ضعفنا، وقوتنا . كتب «نزار» فى مقدمة هذا الكتاب: «سيكون هذا الكتاب نوعا من السيرة الذاتية، والسيرة الذاتية تكاد تكون مجهولة، فى تاريخ أدبنا الأديب العربى لا يحب السفر فى داخل نفسه، ولا يحب استعمال المرايا، حديث النفس للنفس فى بلادنا مكروه، نحن لا نفهم المونولوج الداخلى، ونعتبره نوعا من الغرور والنرجسية، الشاعر العربى يبقى صامتا بانتظار حفلة تأبينه، فحفلات التأبين هى المناسبة الذهبية التى يجلس فيها النقاد على قبر الشاعر كى يلعبوا الورق، وأنا طبعا لن أسمح لأحد بأن يلعب الورق على قبرى، لأننى أريد أن اشترك فى اللعبة».

ماذا أكتب عنك يا «نزار» بعد عام من الرحيل؟ لا شىء إلا أن أقول ، هنيئا للموت بك.

مي زيادة . .

نداء الكتابة لا نداء الرجل

منذ أن تعرفت عليها، أدركت مدى التشابه بيني وبينها، لعنة الكتابة، مصادقة الوحدة، العشق المحال، والنهاية سرير في مستشفى للأمراض العقلية.

إنها النهاية الطبيعية المنطقية لامرأة تعيش في مجتمع صنعه الرجال، وتعشق الكلمة أكثر من أي رجل، إنها النهاية الطبيعية المنطقية لامرأة كان قلمها هو رجلها المثالي به تأتنس ومعه تنتشي، وتحلق فوق قيود الزمان والمكان إنها الأديبة شامخة الكلمة ، متفردة التناقضات ، عصية القلب ، مي زيادة ، التي مرت منذ أيام قليلة ذكرى ميلادها. تسقط دائما مي من ذاكرتنا ، رغم أنها زهرة برية من زهرات الأدب العربي، وزهو النساء العربيات.

تسقط دائما مي من ذاكرتنا سواء في تاريخ مولدها، أو تاريخ رحيلها.

وأين تذهب مي زيادة في عالم تشغله أخبار عاشقات رؤساء الدول وأخبار طلاق راقصة درجة عاشرة وأخبار السعال لممثلة ناشئة، والصور العارية لسقط المتاع من الفنانات والمطربات وأعياد الميلاد، وأفراح أولاد الناس المهمين، وبنات الذوات؟ أين تذهب مي زيادة في عالمنا هذا؟ وهي التي عاشت وماتت دون فضيحة واحدة مع حاكم أو رئيس أو لاعب كرة

ولم تتزوج وتطلق عشرات المرات جذبا للشهرة، ولم نعثر لها على صورة واحدة وهى تقف ملوية الجسد، أو مكشوفة الصدر، أو وهى تطعم كلبا من كلابها التى تقوم بتربيتها فى وقت الفراغ.. أو وهى تتفسح مع صديق نفطى الثروة على أحد اليخوت.

أين تذهب مى زيادة وقد كان شغلها الشاغل هو بناء صرح من الكلمات، وليس بناء فندق سياحى، أو شاليه فى الساحل الشمالى أو سوبر ماركت متعدد الطوابق؟ أو بناء قائمة من العشاق المهرولين؟

من يتذكر مى زيادة؟ امرأة أرادت أن تغير العالم بالشعر والأدب، تغيير العالم؟ وشعر وأدب؟ كلام لا معقول فى عالم أصبحت فيه كلمة «التغيير» كلمة مشبوهة سيئة السمعة وموضة قديمة.

لأن تكون مى زيادة امرأة مفكرة وشاعرة وأديبة وثائرة فهذا فى حد ذاته أمر لا يفهمه الرجال، وإذا فهموه لا يستحسنونه ويفضلون عليه أخبارا وحوادث ومواقف تاريخية تتماشى مع الفكر الرجولى السائد المستقر ، وإذا أضيف إلى هذا أن مى زيادة لم تكن فى حماية رجل له نفوذ رسمى سواء بالمعرفة أو الزواج، فإن التاريخ الرسمى يلفظها أو لنقل أنه لا ينصفها ولا يسلط الضوء الكافى على إنجازاتها وكتاباتها.

والشىء الجدير بالتوقف أيضا أن ذاكرة التاريخ لا تهوى «الكاتبات» و«الأديبات» و«المفكرات» وتعشق بدلا منهن الممثلات والراقصات، والمطربات، نحن هنا لا نقلل من فن التمثيل أو الرقص أو الطرب . فكل

فن له احترامه وإبداعه، لكننا نشير إلى الخلل، وإلى عدم التوازن فى توزيع الاهتمام والتقدير.

لقد انتحرت الكاتبة والأديبة المصرية أروى صالح ألقت بنفسها من الطابق العاشر يأسا من الحياة، ومن مصير الكتابة وأمزجة النقاد، وتجار دور النشر وذكورية الرجال، ولم يلق الخبر أى اهتمام يذكر. لو أن راقصة أو ممثلة سينمائية هى التى قتلت نفسها.. لاهتزت الدنيا، أما فصيلة النساء اللاتى قدر عليهن الكتابة، والفكر فلسن من أولويات اهتمام العالم، وتجىء أخبارهن وذكر أعمالهن (إن حدث ذلك) فى ذيل أخبار الممثلات والراقصات وذلك سواء فى حياتهن أو فى مماتهن، هناك عداء مستتر بين المجتمع الذكورى والمرأة الكاتبة الأديبة.

قد يعترف المجتمع الذكورى بالمرأة فى عالم الكتابة، لكنه اعتراف للمرأة التى تكتب عن كيفية المحافظة على الرموش ونعومة البشرة وراحة الزوج ولمعان الاثاث وانطفاء الكرامة.

أما المرأة التى تكتب عن الظلم الاجتماعى والتفرقة بين البشر وضرورة إعادة صياغة العالم بالعدل والخير والحرية وتجعل قلمها مرادفا للمعارك، والسباحة ضد التيار، وفضح التناقضات الاجتماعية، والأخلاقية التى نتوارثها مثلما نتوارث لون العيون أو قصر القامة ، فهى فى عرف المجتمع الذكورى «امرأة شاذة» و«قلم متطرف» والنتيجة تكون ضرورة تهميشها، وتشويه صورتها والتعتيم على كتاباتها وأفكارها ومواقفها.

مى زيـادة مـن هـذا النـوع، الشـاذ، فـى عـرف مجتمعـات الذكـورة، والتفرقة . فلماذا يتذكرها المجتمع الـذى هاجمتـه فـى كتاباتـها؟ وكيـف يحتفى بذكراها عالم وهبت قلمها لكشف عوراته الفكرية؟

كان لمى صالونها الثقافى والفنى كل ثلاثاء . واستطاعت مى بموهبتها وثقافتها وحيائها الرفيع ، أن تلف حولها فى هذا الصالون الأسبوعى ألمع الشخصيات فى عصرها سواء فى مجال الفن أو العلم.

أدركت مى بحسها الفطرى أنها محبوبة ومرغوبة من ألمع وأشهر وأهم رجال عصرها.

لم يعترها الشك فى صدق عاطفتهم أو فى تقديرهـم لموهبتـها الأدبيـة، لكنها لمحت بذكائها الجزء الذكورى داخل كل منهم . أدركت مى أنـها لـو استسـلمت للحـب، أو الـزواج فعليـها أن تضحـى برسـالتها الأدبيـة والفكرية، هم رجال أدباء وشعراء ومفكرون ومتفلسفون ولكن هنـاك جـزءا بداخل كل منهم لو امتلكها بالعاطفة أو بالزواج فسوف يظهر على حقيقته ويعاملها معاملة الذكر الأعلى للأنثى الأدنى.

عاشت مى وماتت وكل نصيبها من الرجـال كلمـات إعجـاب عـابرة، وقصائد غزل ورسائل حب على الورق ونظرات أشواق فى العيون.

كم امرأة أديبة فى العالم تكتفى بهذا ، لتهب حياتها وشـبابها لمتعـة الكتابة وسحر عناق القلم؟

كم أديبة فى العالم تفضل نداء الكتابة على نداء رجل ؟ كم أديبة فـى العالم تفضل عناق الصفحة البيضـاء على عنـاق حبيـب؟ كـم أديبـة فـى العالم تغفو مطمئنـة النفـس سعيدة الجسد بين أحضان قصـة أو قصيـدة ، لا أحضان رجل عاشق أو زوج؟

كتب أخرى للمؤلفة

١ - أجمل يـوم اختلفنـا فيـه - مجموعـة قصـص - دار نشـر مدبـولى - ١٩٨٧

٢ - رجل جديد فى الأفق - مقالات - دار نشر تضامن المـرأة العربيـة - ١٩٨٨

٣ - بدون أوراق - مجموعة قصص - دار نشر مدبولى ١٩٩٠

٤ - هاتف الصباح - خواطر - ١٩٩١

٥ - البحر بيننا - مجموعة قصص - دار نشر سعاد الصباح - ١٩٩٣

٦ - الحب مع مغامر مرتبك - مجموعة قصص - هيئة الكتاب - ١٩٩٩



رؤى فكرية عامة

عن الدين والحياة

عن الحب

عن معنى الرجولة

عن المرأة

عن الفن والأدب

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

– داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً

– الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًّا

– الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًّا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء – القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة.

رقم الإيداع	١٩٩٩/١٧٠٢٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5953-5

١/٩٩/٨٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)